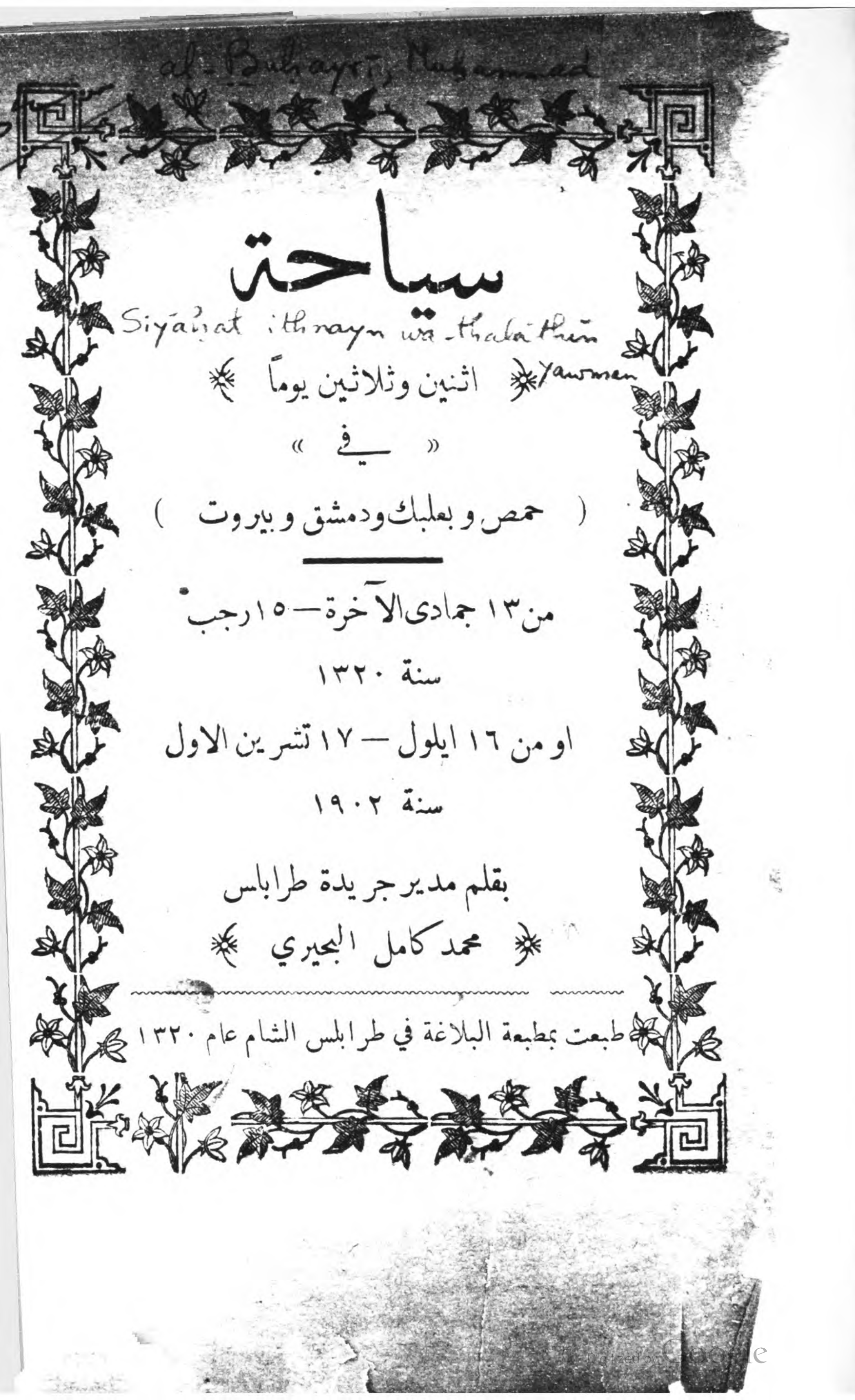


al-Buhayri, Muhammad

سياحة

Siyahat ithnayn wa-thalathin yawmen

اثنين وثلاثين يوماً

« في »

(حمص و بعلبك ودمشق و بيروت)

من ١٣ جمادى الآخرة — ١٥ رجب

سنة ١٣٢٠

او من ١٦ ايلول — ١٧ تشرين الاول

سنة ١٩٠٢

بقلم مدير جريدة طرابلس

محمد كامل البحيري

طبعت بمطبعة البلاغة في طرابلس الشام عام ١٣٢٠



نشرت في اعمدة جريدتي « طرابلس » هذه السياحة تفكهة للقراء الكرام فعنَّ لي حفظها في كراسة . واهداؤها لذوي الكياسة تخليداً لبعض الشكر . لما حظيت به من الطاف ذوي الكياسة والبر . على انها لا تخلو من فائدة تذكار. لآثار تلك الديار . والكيّس لا يحتقر مسطورا . ولو شيئاً يسيرا . رجاءَ ان يجد فيها ما يسليه . او الى مقصد له يهديه . وعلى كل فالتشبه بالكرام . مما يروق ذوي الافهام . ومن الله التوفيق . فقلت تحت هذا العنوان

اثنان وثلاثون يوماً

خارج طرابلس

لا شيءَ انفع للنفس وافيد لها والذُّ عندها وابهج لديها من اطلاق سراحها عقب انحباسها في اقفاص الاعمال واثقالها بقيود

الاشغال وخصوصاً الفكري منها —تسرح في ملك الله الواسع وتجلي بصرها وتيقظ بصيرتها بما تعاينه من كل شيء جديد فتغادرها تلك الاتراح المتلبدة وتتقشع عنها غيوم السآمات المتكاثفة وتنبعث فيها بذور الافكار الخامدة وتشب جذوع تصوراتها الهامدة فلا ترجع الى مركزها الا وقد عادت اليها قواها ونمت مداركها فاستفادت من كل جديد احسنه و تيقظت لكل منسي قد نسجت عليه العناكب منذ ايام الصبا فاصبح لا يجول في خاطر ولا يخطر في بال لو لم تمزق عنه تلك المشاهدات الستائر وتزيح عن وجهه الضفائر

فهذه اهم فوائد التطواف والسياحة لمن لم يتخذها سبيلا ووسيلة لربح ما . وهذه عندي كانت النتيجة فقد روضت الجسم وارحت النفس وايقظت الذاكرة وقدمت لقراء صحيفتي هذه خدمة تكون لهم خير مسلٍ ولعله مفيد وذلك بان املي عليهم ما وعته الحافظة من صور الافكار التي كانت تمرُّ بها او تخطر عليها وقد عزمت مرارًا وعقدت النيــة تكرارًا على زيارة اقطاب البلاد السورية واعظم معالمهـا التي يقصدها السواح والزائرون من

كل وجهة اداءً للواجب عليَّ اولاً نحو بلادي قبل ان اخطر غيرها فكان يعيقني احياناً عن انفاذ ما ربي تكاثر الاشغال و يثبطني اطواراً بعد المشقة او عسر الانتقال · وما زلت على تلك الحالة مقدماً محجماً الى ان تمت المواصلات وسهلت التنقلات فعقدت النية اذ ذاك على تمضية عدة ايام خارج طرابلس وعهدت باشغالي لمن اثق به وجعلت مبدأ السياحة يوم الثلاثاء لثلاثة عشر يوماً خلت من شهر جمادى الاخرة الغابر

فبارحت الفيحاء وفي النفس لها شغف وللقلب عندها وصلة وتعلق لا اقدر على التعبير عنه بسوى اهدائي لقلب القارئ ان يتصور تركه وطنه ومغادرته مسقط رأسه مهما اضطرته الظروف وحتمت عليه المقتضيات ببراحه ومزايلة ربوعه · وزايلت موقف الشوسة في البلدة على عربتها صبيحة نهار الثلثاء الساعة العاشرة فسارت بنا و باسم الله مسراها تنهب خيلها الارض نهباً قاطعة تلك الصحارى والفدافد مارة بين مروج خضراء تشمخ فيها سوق الزرع بروؤسها وتميس كلما هبَّ عليها نسمة من نسيم الصباح ثم لا تلبث ان تعج ولا عجيج الجيش العرمرم وتموج ولا

موج الخميس اذا حمي الوطيس وكانها بانتصابها فرسان قائمة
تنظر عدوًا مقبلاً لتنازله و تبارزه . وقد رصعها الندى ليلاً بحباته
التي كانت تتألق عليها تألق الزرد في الدروع . فكانت هذه
وما بقي من بلالة الليل خير ملطفين للهواء ومخففين لحرارة الفصل

ودام سيرنا على هذه الحالة منشرحي الصدر مسروري الفؤاد
بما كان يهب علينا من النسيم البليل الى ان وافينا موقف العبدة
وقد ذرَّ قرن الغزالة اذ ذاك فرشقت باشعتها تلك البطاح فكانها اشعة
كهربائية سلطتها على تلك الجيوش المتألبة والفرسان القائمة لتكشف
ما عندهم وتطلع على خباياهم فهتكت سترهم اذ انتزعت منهم تلك
الدروع التي كانت عليهم تلمع وللابصار تسطع وبالاحرى ان
نقول ما تلك الدروع المسلوبة الا امواه تتبخر فتعود لما كانت عليه
(وكل شيء عائد لاصله)

وما ارتفعت الشمس حتى تقلص ظل الهواء العليل وتبدل
بهواء حار يلفح الوجوه لفحاً فلم نقوَ على احتماله بسوى ما كنا نستر
به وجوهنا من المناديل المغموسة بالماء واشتدت الحرارة حتى
بلغت الدرجة الثانية والثلاثين ونصفاً بحساب سنتغراد وثار

نقع الارض امامنا فحرمنا من التمتع بمشاهدة تلك المناظر البديعة التي كانت تمرُّ بنا او نمرُّ بها كما حرم نفسنا ذلك الهواء الحار من التروُّح والانشراح غير اننا استعضنا تمتع الابصار باعمال الفكر بذكر ما تدخره صحائف الذهن لما كنا نمرُّ عليه من الآثار فكان ذلك لنا خير منقذٍ من الملل ومسلٍّ لنا وقت لا شغل ولا عمل

وما كاد يطرق على سمعي اسم عرقة حتى انتقل الذهن الى ما كانت عليه تلك المدينة الشهيرة من بعد الصيت وجليل الشهرة وكبير الذكر فمضت عليها الاعوام الكثيرة وهي في عز وجاه وصفاء ورفاه تحيط بها الاسوار ويحكمها ملك تلك الديار وكيف تقلبت عليها الايام وتبدلت لها الاطوار فكانت مقرًّا للملك ومعقلاً لجيش وثغرًا لاسطول وكيف آل بها الحال وانتهى بها المآل الى خراب ويباب ونعيق غراب ·

وهكذا اخذت تترى بالمرور على الذاكرة صحائفها التاريخية فيليق بي ان اشارك القارئ الكريم بما كنت اذكره ·

✻ عرقة ✻

بلدة قديمة واقعة على بعد قليل من طرابلس في

قضاء عكار وهي في سفح الجبل قائمة على شرفة وادٍ عميق تجرى فيه مياه جدول صغير من لبنان والى القرب منها تل لا يزيد ارتفاعه عن مائة قدم والى شماله خرابات كثيرة تدل على ان موقع المدينة القديمة كان في تلك الناحية وهو يشرف على السهل المتسع والبحر المتوسط وهناك اثار سور كان يحيط بالمدينه . اما تاريخ المدينة فقديم جدًا وهي من المدن الفينيقية فان العرقى بن كنعان هو الذي اتى بنسله فبنى المدينة وسكنها . ولقد كان يجول في خاطرنا ذكرى ذلك الملك (برتران) الذي خرج منها بسبعين مركبًا لمحاربة اخيه في طرابلس وكيف انه عاد اليها بعد ان تم له ملك عرقة وطرطوس وكيف حاول الصليبيون فتحها وحاصروها نحو شهرين ولم يقووا عليها لمنعتها وكيف انهم عاودوها وتمكن لهم فتحها بعد غيرها عام ١١٠٩م وكيف آل بها الحال فما وسعنا سوى التفويض والتمجيد للواحد القهار .

ثم جال في فكرنا خاطر آخر وهو الاسف على اهمال تلك الاثار والعاديات القديمة وعدم الالتفات اليها مع انه لو عني من يسكن جوارها بالبحث عن ذلك او سواهم من اهل الوطن بعد

نوال الاذن من الحكومة السنية لوجدوا فيها من الاثار ما يعز وجوده و يعظم قدره وقيمته عند العالمين بها فافادوا او استفادوا

هذا وما زلت مستغرقًا في بحار من تلك التصورات والتخيلات تتجاذبني الايام السابقة والاوقات الحاضرة الى ان ايقظني وقوف المركبة في محطة تل كلخ وكانت الساعة ٣ والدقيقة ٤٥ اي بعد ان مضى على مفارقتنا لطرابلس خمس ساعات و٤٥ دقيقة فنزلنا من المركبة للاستراحة ولكن انىَّ لنا ذلك ومن لفحات الهـواء واشعة الشمس اعظم مانع واقوى ممانع ونظرنا الى ميزان الهواء الذي يخبر عن مقدار الارتفاع كلما خف ضغط الهواء الساحلي عنه فكان ارتفاع قصبة تل كلخ عند المحطة ٢٠٠ متر . و بعد الاستراحة قليلاً استأنفنا السير واخذ الطريق بالصعود فما بلغنا محطة حديدة حتى بلغ الارتفاع ٣٠٠ متر . وما وصلنا لموقف خربة التين وهي اعلى موقع على الطريق بين طرابلس وحمص فبلغ الارتفاع ٥٨٠ مترًا . ومن هنا اشرفنا على مدينة حمص فكانها وسط تلك الفلوات المتنائية الاطراف الشاسعة الاكناف التي تجري بينها امواه نهرها السلسبيل خالٌ في وجنة حسناء . فقلنا ما شاء الله لا قوة الا بالله

ما الطف ذلك الموقع وابهى هذا المنظر البهيج . ثم اخذ الفكر يجول منذ اول نظرة لها بحالتها قديماً وحديثاً وكأن صحيفتها عُرضت ثانية على المدركة فقرأنا فيها ما يتلى عليك :-

حمص

او امسا (Emesa) بلدة عظيمة واقعة في الدرجة ٣٥ والدقيقة ٨ من العرض الشمالي والدرجة ٣٤ والدقيقة ٢٥ من الطول الشرقي وعلى بعد ١٤٠ كيلومتراً من الشمال الشرقي لدمشق وعلى ٢٥ ميلاً الى الجنوب الشرقي من حماه . ويربو عدد سكانها عن خمسين الفاً اكثرهم مسلمون ويغلب على المسيحيين فيها اتباع الرومية الارثوذكسية وفيها شرذمة من اليعاقبة اي اتباع يعقوب البرادعي . وهي مبنية وسط سهل متسع في غاية من الخصب والكلاء ويجرى في القرب على مسافة ميل منها نهر يدعوه العرب العاصي ويسميه الافرنج اورونت (Oronte) اوا كسيوس (Axius) وهو خارج من جبال انتي ليبان (Anti - Liban) بالقرب من ناحية الهرمل التابعة لمتصرفية جبل لبنان ويؤلف بالقرب من حمص

بحيرة مساحتها ٥٠ كيلو مترًا مربعًا في وسطها جزيرة صغيرة لا شيء فيها من الآثار القديمة اذ ان الالمانيين قدموا اليها منذ مدة ونقبوها تمامًا فلم يعثروا فيها على اثر لما كانوا يفتكرون. ثم يواصل هذا النهر السير حتى يمر بحماه وبقرب انطاكيه الى ان يصب في البحر المتوسط جنوبي السويدية التي كانت تدعى قديمًا سلوسي (Séleucie) ويبلغ طوله من منبعه حتى مصبه ٤٠٠ كيلومتر.

ولبناء حمص عهد قديم ولكن التاريخ يضن بذكره حتى زمن استرابو وبليني وقد اشتهرت قديمًا بهيكل الشمس الفاخر الذي كان فيها حيثما كان يجتمع اناس كثيرون للاحتفال بطقوس معبودهم آله النهار. وقد كان لها زمن الرومانيين ذكر عظيم وشهرة زائدة اذ يذكر لها التاريخ قصة عجيبة وهي ان الكاهن الاكبر لآله الشمس في حمص المسمى الكاهن فاريوس افيتوس باسيانوس (Varus Avitus Bassianus) ادعى بعد مقتل الامبراطور (كاراكالا) انه من نسله فاعلنه الجيش في حمص عام (٢١٨) م امبراطورًا على كرسي المملكة الرومانية دون ان يكون من ارباب الملك والسيادة في شيء. وساد الامن

في ايامه على حدود المملكة الجرمانية والبارتية (اسيا العليا) ٠ وقد كان غريب الاعمال فقد كان ينقل الحجارة السوداء من حمص ويهديها للمعابد في روما ٠ وقد الف مجلس شورى من النساء وعهد الى امه برئاسته ٠ وهكذا كانت احواله الى ان قتل باغراء ابن عمته اسكندر الذي خلفه عام (٢٢٢) م ٠ هذا وما زالت حمص في يد الرومانيين والممالك المسيحية الى ان اتى القائد الاعظم الصحابي الجليل ابو عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه وفتحها في عام ستة عشر من الهجرة ودخلت منذ ذلك الوقت في حوزة المسلمين ٠ ثم اخذت بعد ذلك تتقلب عليها الحكومات الاسلامية الى زمن الصليبيين فحاولوا اخذها ولكن اميرها آنئذ خلص نفسه وبلدته بدفع مال جزيل لهم ٠ وقد تسلطت عليها بعد ذلك عدة ايد من الخوارج الى ان استتب فيها الملك العثماني تماماً وذلك اعتباراً من سنة ١٢٥٦ هجرية الى يومنا هذا

وبقيت هذه الافكار مشغلة لفكري مدة المنحدر بين خربة التين وسهل حمص الغسيح فما ادركت نفسي الا وقد نزلنا اليه ونزل معنا المقياس الى ٥٠٠ متر وهو ارتفاع حمص عن سطح البحر

وما قاربنا مدينة حمص الزاهرة حتى اقبلت علينا نخبة من ذوي الوجاهة والفضل لاستقبال حضرة الاستاذ الذي كنت بمعيته فانتقلنا من العربة العمومية الى عربات خصوصية كانت معدة لذلك فسرنا وسط ملتف البساتين النضرة والجنائن البهجة التي تحيط بها جداول المياه المأخوذة من نهر العاصي الكبير فكنا لا نسمع سوى حفيف الاشجار وخرير الامواه فاطربتنا تلك المشاهدة اللطيفة وسرنا في ذلك المدخل البديع لبلدة حمص وتمنينا ان لو كان اهل كل بلدة يعتنون بتحسين مدخل بلدتهم اذ لذلك تأثير عظيم في نفوس الواردين اليها

وما استقر بنا المقام في دار حضرة اتاسي زاده ذي الفضيلة نجيب افندي حتى اقبلت افواج اهل الفضل والوجاهة واللطف للسلام على حضرة الاستاذ المومى اليه فامضينا ليلتنا ما بين استقبال واحترام ومؤانسة واكرام فشاهدنا في اخواننا الحمصيين ما اشتهر عنهم من تجسم اللطف وتشخص الكمال ولا غرابة في ذلك فالتاريخ اعظم شاهد على حقيقة ما اتصفوا به من مجاملة الغريب وحسن معاشرته

ولما اقبل الصباح فازاح حنادس الظلام عن وجه الغادة الحمصية اشعرنا لاول وهلة بحسن مناخها وجودة هوائها اذ قد زال ما كان بنا من وعثاء السفر واصبحنا نشطين فرحين . فتسنى لنا آنئذ ان نطوف في جادات اسواقها ونشاهد نذرًا من آثارها ونقف على طرف من احوالها ونلمّ بقليل من بشائر مستقبلها فخلص عندنا مجمل حالتها الطبيعية والعلمية والتجارية والمدنية ولا بأس اذ اتيت للقارئ الكريم على ملخص من ذلك اذ لا يخلو من فائدة فاقول :

حمص بلدة طيبة الهواء مطلقة الارجاء معتدلة الفصول قليلة الرطوبة صحة سكانها جيدة ولذلك قد رغب سكناها الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم اجمعين من بين كثير من البلاد السورية وقد توطنوها واتخذوها مقاماً حتى انك تجد بها كثيرًا من اضرحتهم الشريفة التي تشرفنا بزيارتها واشهرهم حضرة سيدنا خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . اراضيها مخصبة كثيرة الانبات صالحة لزراعة كثير من اصناف المزروعات

والمغروسات غير ان ابناءها مقتصرون على ما اشتهرت زراعته بينهم كالحنطة والشعير والعدس والماش والذرة وما شابهها من الحبوب كما اقتصروا على المعاملة فيما يرد اليها من العرب الذين يجاورونها ايام الربيع كالسمن والاصواف مع البلاد الخارجية

والذي يظهر من حالتها ان الله سبحانه وتعالى رتب ثراءها على الزراعة الحقيقية فلو يصرف ابناؤها جدهم وكدهم و يعتنون بزراعة اراضيهم كما يجب حسب الاصول لا تلبث ان نراها في اعظم الدرجات بين البلاد السورية ثراءً ونماءً

اما الصناعة الحقيقية فليست فيها كما يجب وغاية ما فيها من ادوات الصناعة آلات النسج الذي اختصت بها تقريباً وهو نسج لطيف متين لا ينقصه سوى اقبال من ابناء البلاد السورية فيصبح في اعلى الطبقات واسمقها وتنبثق منه فروع تكون سبباً حقيقياً لتخفيف وطأة الفقر المدقع النازل بجملة من سكانها بل يمكننا ان نقول انه يرتفع ذلك وتصبح درجة هؤلاء الفقراء درجة متوسطة لا بأس عليهم منها

ولقد ظهرت عليها في هذه الايام اشعة من شمس الفلاح والارتقاء فأمل اهل التدقيق والامعان بحسن مستقبلها اللهم اذا لم تقتصر تلك الاشعة عليها بل تعدت منها فوصلت خطوطها الحديدية بحلب ومنها اتصلت بخط بغداد الكبير وامتد فرع منها الى طرابلس — اذا لم يكن لها معارض — اذ تصبح باقرب وقت ثغرًا داخليًا للخطة العراقية الاناطولية والهندية فتنقسم فيها الاشياء الواردة ما بين خط بيروت وخط طرابلس . وفي ذلك من الفوائد العظيمة ما لا يخفى على كل مطلع على احوال البلاد التي اتخذت مركزًا لتقاطع الخطوط الحديدية . ومن بشائر نجاحها ارتفاع اثمان الاراضي المجاورة للخط فانها كانت مبتذلة لا يعبأ بها ولا يلتفت اليها وفي ارتقاء قيم الاراضي اهمية كبرى لا تخفى .

اما حالتها العلمية الدينية فانها حسنة جدًا لا تزال مفعمة مدارسها بالطلاب يتلقون العلوم الدينية والادبية و يغلب عليهم حب المذاكرات العلمية والعناية بتبادل الافكار ولا يخفى حسن ذلك جدا و يمتاز البعض من سكانها با لوقوف على فن الموسيقى القديمة

وهو احدى الفنون الجميلة التي اندثرت من بلادنا

اما حالة المعارف العصرية فيها فمتأخرة اذ ليس للحكومة فيها سوى مكتب رشدي من الدرجة الثانية وقد انتهزت الاجانب الفرصة فاسسوا مكاتب ومدارس عديدة ولقد تمنينا ان لو يصرف الوطنيون طرفاً من عنايتهم فيؤسسوا لهم مكتباً للذكور وآخر للاناث مستوفيين ما يلزم للطلاب من اسباب التحصيل ووسائل الارتقاء فينبغ من الشبيبة الجديدة افراد يكونون مجداً عصرياً للوطن ازاء مجده القديم العلمي .

واما حالتها الزخرفية فقد تبدلت عن ذي قبل وتحسنت نوعاً ما فاتسعت شوارعها واصلحت ازقتها وزخرفت بيوتها حسب الزخرف العصري البديع واهم ما شاهدناه من الشوارع المنتظمة التي تشبه شوارع البلاد الجسيمة الشارع الجديد الذي افتتح في مدة رئاسة سعادتلو عبد الحميد باشا الدروبي للبلدية .

هذا وقد تشرفنا ثاني يوم وصولنا بزيارة ضريح حضرة الصحابي الجليل سيف الله ذي العزم الشديد سيدنا خالد ابن الوليد

رضي الله تعالى عنه وارضاه وبعد ان ادينا فرض العصر في جامعه المنير تشرفنا بزيارة اضرحة سواه من الصحابة والاولياء والعلماء والصلحاء فاغتنمنا البركات . ثم ذهبنا للنزهة في محل بديع يدعوه الحمصيون (الميماس) وهو محرف المسيماس وهو اسم نهر العاصي فسررنا بذلك المنظر البهج جداً . وهناك جسر ممتد فوق النهر قد حصرت بواسطته امواه النهر فالفت شبه بحيرة جميلة قد ركد فيها ذلك الماء البراق وحولها جنائن غناء تصدح على اغصانها بلابل الطيور مسبحة مقدسة لخالق هاته الاكوان ومبدعها وانعم بذلك المنتزه البديع

ولقد ابدع احد الفضلاء فيما تخيله في اسم ذلك المنظر في ذلك المجلس فقال :

منذ شاهدت منظر الميماس　　بان عندي اسمه بدون التباس

ماؤه العذب قد صفا وتلالى　　فاق ذوب اللجين عند القياس

وحكا ذوب جوهر الماس لطفاً　　وبريقاً . فقيل ذا ماء ماس

انما خف في النفوس فلتخـ　　ـفيف لفظاً دعوه بالميماس

ولما عزمنا على الرحيل صبيحة يوم الجمعة اي ثالث يوم من وصولنا جال في الخاطر شيء تشوقت نفسي جداً الى انفاذه ألا وهو زيارة خرابات تدمر التي يتسابق السواح الاجانب الى زيارتها والتفرج على معالمها ولكن بعد الطريق بينها و بين حمص المقدر بتسعين ميلاً من جهة الشرق وعدم امنيته وعسر النقليات اليها وضيق امكنتها التي اصبحت عبارة عن عدة اكواخ في فدافد وسيعة اخرتني وصرفت نظري عنها فاكتفيت بترديد ذكراها وعظمتها وسمو قدرها في الاقوام السالفة حتى وصفها النابغة الذبياني بقوله:

الا سليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحدوها عن الفند
وجيش الجيش اني قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وكيف ذكرها ابو الطيب المتنبي حين تحصن بها بنو عامر وكلاب من سيف الدولة بن حمدان العدوي سنة ٢٤٤ هجرية فقال

وليس بغير تدمر مستغاث وتدمر كاسمها لهم دمار
ارادوا ان يديروا الرأي فيها فصبحهم برأي لا يدار

وان المقام ليضيق الان عن ايراد ما جال في الخاطر من حالتها التاريخية وتقلب الازمان عليها

﴿ بين حمص و بعلبك ﴾

ولما لاح فجر يوم الجمعة الموافق للسادس عشر من شهر ايلول حساباً شرقياً تأهبنا لمزايلة مدينة حمص الزاهرة قاصدين زيارة مدينة بعلبك لنسرح الطرف بمشاهدة معالمها ولنطلق للروح زمامها بتذكر تلك الدواثر وما مضي عليها وما هو حاضر فركبنا قطار السكة الحديدية الذي انشيء حديثاً بين حماه ورياق وتحرك بنا الساعة واحدة والدقيقة ٤٥

ولقد سرنا جداً انتظام الخط الحديدي واتقانه فانه من النوع العريض فسيح المركبات منتظم المفروشات حتى ان مفروشات الدرجتين الاولى والثانية من الحرير والدمستق الخالص مع لدونة في المقاعد وراحة في المتكآت رصين السير ولكنه غير سريعه الآن اذ ان بناءه لا يزال جديداً وخطوطه لا تتحمل السير السريع ومع ذلك فقد قطع بنا تلك المسافة الطويلة بمدة جزئية . ومن الطف الحالات التي سررنا بها اثناء سيرنا على ذلك الخط اننا لم نشعر باقل غبار او عثير مع اننا اذا سرنا على طريق

الشوسه المار من امام مطبعتنا يميناً او شمالاً في ايام الصيف لا نكاد نفرق بعضنا بعضاً مما نكلل به من اكاليل العثير فيبيض منا كل مفرق ولكن لا عجب فذاك اشتغلته الشركة من مالها لذاتها وهذا صُنع بمال الوطن لابنائه والفرق بين الحالتين عظيم ..

هذا وقد كان سير القطار عند خروجه من حمص نحو الجنوب فوقف على قطين وهي اول محطة ثم زايلها المحطة القصير ثم لقرية الزراعة وبلغ الارتفاع ثمة ٥٨٠ متراً ثم انحرف بسيره نحو الغرب وكانت الساعة اذ ذاك ٣ ١/٢ وبلغ الارتفاع حينئذٍ ٧٠٠ متر وبعد ان كان سائراً في سهل انتقل لطريق مصخر وصار على شرقه سلسلة جبال انتي لبان وعند الساعة ٣ والدقيقة ٤٥ بلغ الارتفاع ٨٠٠ متر واتجه القطار نحو الجنوب وبلغنا رأس بعلبك الساعة ٣ والدقيقة ٥٠ وكان ارتفاع المحل المذكور ٨٠٠ متر ثم وصلنا عند الساعة ٤ والدقيقة ٣٠ محطة اللبوة وارتفاعها ٩٠٠ متر عن سطح البحر وهناك وقف بنا القطار ربع ساعة ولما حانت الساعة السادسة وافينا مدينة بعلبك فاشار ميزان الارتفاع الى ان ارتفاع مدينة بعلبك عن سطح البحر ١١٧٠ متراً

ما تحركت عجلة القطار في محطة حمص وسار بنا يقصد مدينة الشمس الا وتحركت في النفس عجلات كدن يطرن بنا نحو تلك الاطلال التي كنا نقصدها لغرض واحد وهو مشاهدة الدوارث التي قص علينا التاريخ حالتها ووصف لنا السواح معالمها وضخامتها وجسامة بناياتها وطاف بنا الفكر على امور لم تكد تجول بالخاطر قبل ان اوشكت تلك المعالم ان تظهر عليناعياناً فكبرت في النفس تلك المقدرات الانسانية التي اتت بتلك الآثار العظيمة ولكنها ما لبثت ان صغرت حينما تذكرنا انها لم تأت بتلك الاعمال الا لامور تافهة وهي عبادة بعض النجوم والكواكب وتكرر على الفكر ما مضى على تلك البنايات الشاهقة والمعابد الباسقة من الجاه العريض والمجد العظيم وكيف تقلب عليها الحال واندرث عزها المقصود منها كما اندثرت قصورها وقاعاتها ولم يبق لها من العز سوى تذكر مجدها القديم والتفرج على دوارث ماصنعته تلك الايدي السورية وشادته هاتيك الافكار الوطنية

ودامت هذه الهواجس تجول في خاطري حتى انتقل فكري لحالة بعلبك التاريخية وما يتلوها من الحالة الجغرافية والطبيعية

فاستغرقت في ذلك زمناً لذ لي به الدوام وصفا لي به البقاء بعد ان ضاقت النفس من الحالة الاولى فلا بأس اذن بان اقاسم القارئ الكريم تلك اللذة واشاركه بهاتيك النشأة فاقص عليه مجمل ما جال في خاطري من ذلك فاقول :

بعلبك

ويقال لها في الفرنساوية Baalbek او Balbek وهي بلدة هليوبوليس Héliopolis واقعة في سهل البقاع عند اكمة منخفضة على بعد ميل واحد من جبال (انتى لبان) وقد كانت سيئة الانتظام غير حسنة البناء تحيط بها اسوار وابراج على ابعاد متباينة وفي دائرة هاته الاسوار ميلان غير ان المدينة الحالية صغيرة لا تعد شيئاً بالنسبة للمدينة الاولى وهي قائمة في احدى زوايا المدينة القديمة

وتبعد مدينه بعلبك عن الشام ٣١ ميلاً من جهة الشمال وتبعد عن طرابلس ٣١ ميلاً اي انها نقطة متوسطة بين دمشق وطرابلس ويربو عدد نفوسها الان عن ستة الاف بينهم قسم من المسلمين والباقون من ملل مختلفة. وهي الان مركز قضاء تابع لولاية

سورية اكثر محصولاته الحنطة والشعير والعدس والحمص وغير ذلك من الذخائر والحبوب و يجري في القضاء عدة انهر صغيرة واعظمها نهر (ليده) المنسوب لمحل نبعه وهي قرية ليده ومعظم سيره نحو الشمال وفي بعلبك عدة جوامع ومعابد غير ان جامعها الاكبر مشرف على الخراب ومن المحلات التي تزار بها على ما يروى قبر كريمة سيدنا الحسين سبط الرسول عليهما الصلاة والسلام

اما تاريخ بنائها وفي الحقيقة تاريخ معبدها فمجهولة سنته واسم بانيه . وغاية ما يقال عنها انها المدينة التي كان يسميها اليونانيون هيليو بوليس اي مدينة الشمس وان معنى اسمها مدينة بعل حاسبين بك مثل باكي المصرية ومعناها مدينة ولعل ذلك سبب تسميتها هيليو بوليس اي مدينة الشمس لان المعبود بعل يراد به الشمس و يرجح البعض ان معناها بعل البقاع فان معنى بقاع بالعبرانية والفينيقية مثل معنى بقاع بالعربية اي السهل بين جبلين

والظاهر ان سكان سورية الاقدمين رأوا صخرًا مرتفعًا في طرف سهل البقاع يطل على ما حوله من البلاد الخصبة وتجري

بقربه مياه غزيرة فنحتوا فيه مذبحاً للشمس التي كانوا يعبدونها وقد بقي هذا المذبح الى يومنا هذا يصعد اليه بدرج منحوت في الصخر . هناك كان يجتمع قدماء السوريين ويذبحون الذبائح للشمس ويشكرونها على الخيرات الكثيرة التي انتجتها لهم ارضهم بفضل نورها وحرها . وكأنهم علموا ما يحققه اليوم الحكماء من فضل الشمس على الارض وان ما يحدث على سطحها من الحركة والنماء هو بفضل حرارتها ونورها ولكنهم اضلوا السبيل فشكروا السبب الظاهري وتركوا السبب الحقيقي وهو شكر الخالق سبحانه وتعالى مبدع الاكوان ومدبرها .

ثم الظاهر ان هذا المعبد والبقعة التي هو فيها راقا للروم الذين فتحوا بلاد الشام وامتلكوها فاقاموا حولها دكة كبيرة حتى يتسع لهم المجال لبناء هيكل كبير ثم بنوا هيكلين فاتموا الصغير منهما وقبلما اتموا الكبير انتشر المذهب المسيحي واعتنقه قياصرة الروم ومنعوا عبادة الاصنام وبنوا كنيسة في دار الهيكل الكبير وحولوا الصغير كنيسة اخرى وجاء العرب بعدهم فجعلوا المكان قلعة وبنوا من انقاضه حصناً وغاية ما يحققه المؤرخون ان البناء

ليس بالقديم وينتهي تاريخ تمامه بنهاية العصر الثاني من التاريخ المسيحي

ولقد مرّ على بعلبك ادوار تاريخية مهمة فكانت في القرن الرابع المسيحي من اعظم معاهد الديانـة الوثنية هيكلهـا الكبير لعبادة الشمس او جميع الآلهة وهيكلها الصغير لعبادة المشتري وقد ضربت فيها النقود وعليها صورة الهيكليين وكان لعبادة الشمس الشان العظيم في سورية ولكهنتها المقام الرفيع حتى ان الامبراطور سيتمبوس سفروس تزوج جوليا دومنا ابنة كاهن الشمس في حمص ومعلوم ان هيلوكيلوس كاهن الشمس صار امبراطورًا لرومية وقرن السوريون عبادة الزهرة بعبادة الشمس وكانوا يأتون بعلبك لهذه الغاية لان فيها هيكلاً صغيرًا للزهرة وهو من اجمل المباني القديمة ولذلك كان اهالي بعلبك في اشد الحمس الديني حتى انهم قتلوا جلاسينوس الممثل سنة (٢٩٧ م) لانه تنصر وابى ان يمثل في المشهد

ثم لما قوي شان النصرانية في عهد الملك قسطنطين خرب هيكل الزهرة في افقا بجبل لبنان وامر بان يقلع اهالي بعلبك عن فظائع الوثنية ورغبهم باعتناق المسيحية وبنى كنيسته المشهورة

في دار الهيكل الكبير وحول الهيكل كنيسة وسام لها اسقفاً ولكن بقيت عبادة الاصنام في المدينة لانها كانت ارسخ من ان تزول سريعاً . ثم لما قام الامبراطور يوليان سنة (٠٣٦١م) اعاد الوثنية الى عزها الاول وفتك باهلها المسيحيين فتكاً ذريعاً وقتلوا الراهب كيرلُّس الذي كسر اصنامهم وقطعوه ارباً واكلوا كبده وقام الامبراطور ثيودوسيوس الكبير سنة (٠٣٧٩م) فلم يكتف بما فعله قسطنطين من اقفال هياكل الاصنام بل خربها تخريباً وحول هيكل الشمس في بعلبك الى كنيسة والظاهر ان دعائم الوثنية تقوضت من بعلبك من ذلك الحين

ولما فتح سيدنا ابو عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه دمشق وقصد مدينة حمص مر على بعلبك ولما قرب منها التقى بقافلة عظيمة فيها جمع من الناس معهم البغال والدواب وعليها من انواع التجارة شيء كثير فغنمها . وحاصر بعلبك فصالحه اهلها على الفي اوقية من الذهب والفي اوقية من الفضة والفي ثوب من الديباج وخمسة الاف سيف على ان يدفعوا خراج الارض تلك السنة و يؤدوا الجزية كل عام لكنهم شرطوا على سيدنا ابي عبيدة

المشار اليه ان لا يدخل عامله المدينة وتم الصلح على ذلك واستعمل ابو عبيدة رضى الله عنه على المدينة رافع بن عبد الله السهمي وضم اليه تسعمائة فارس فاقاموا خارج المدينة وجعل يغزو البلاد المجاورة ويعود بالغنائم ويبيعها الى اهل المدينة فانسوا اليه وادخلوه مدينتهم وذلك في ٢٠ شباط سنة (٦٣٦)م وهي السنة الخامسة عشر من الهجرة · وتوالت على بعلبك الدول الاسلامية وهي مهملة وفي سنة (١٤٠١) مجاء تيمورلنك ينزل الويل والحرب ببلاد الشام ولما قصد دمشق مر ببعلبك فخرج اهلها اليه وتراموا على يديه ورجليه طالبين منه الصلح والسلام فلم يلتفت اليهم بل بعث للحال عسكرًا فنهبوا البلدة ثم صارت بعلبك بعد ذلك بلدة عثمانية وذلك بعد فتح سوريا سنة (١٥١٧)م وما زالت الى الآن راتعة تحت ظلها ·

هذا مجمل ما جال في خاطري والقطار سائر بي ولما وقف عن سيره في محطة بعلبك انتبه فكري وزالت عني تلك الخواطر فركبنا عربة صغيرة وقصدنا نزل الخواجه بركلي المشتهر بحسن موقعه

وانتظام حاله • وبعد ان استقر بنا المقام وتناولنا شيئاً مما حضر من الطعام قصدنا النزهة في محل رأس العين وهو يبعد عن نفس بعلبك خمسة كيلو مترات و يصل بينهما طريق شوسه منتظمة على طرفه اشجار الحور الباسقة • ولما وصلنا اليه راقتنا جداً نضارة مرجه ولألاء مائه و بقينا فيه الى الاصيل حتى انست نفسنا وذهب عنا ضيق الانحباس في القطار مدة من الزمن • وقد رأينا فيه من الآثار العتيقة دوارث جامع ضخم البناء اشادته ايدي الملوك المصريين وعليه اثار كتابة من الآيات القرآنية بخط جميل وتدل ظواهره على انه كان بديعاً اما اليوم فقد اصبح خراباً يباباً • ثم عدنا الى نزلنا فانسنا مساءً بلقيا نخبة من ذوي الوجاهة والالطف قد قدموا للسلام على حضرة الاستاذ المعظم واستقر رأينا على زيارة الاثار البعلبكية ثاني يوم و بتنا على هذه النية

✵ وصف آثار بعلبك ✵

وفي صبيحة يوم السبت ثاني يوم وصولنا لمدينة بعلبك قصدنا زيارة الخرابات البعلبكية وهي واقعة غربي المدينة فقصدناها وادينا قبل الدخول عن كل شخص ريالاً مجيدياً وقد جعل هذا

الرسم مورداً لمكاتب ابتدائية افتتحت في القضاء وانعم بذلك من مقصد خيري ومورد لا ضرر فيه على الغني وفيه نفع للعموم

ما تطأ رجل المتفرج على خرابات بعلبك بابها حتى يلج في مدخل تحت الارض وهو من نوع الاروقة ذي شقين يصل بينهما خط عمودي قد اصبحت صورته هكذا H . وقد اتخذ هذا الطريق ليكون المعبد في ارتفاع وسمو عن سطح الارض و يبلغ طول هذا المحل ١٢٠ متراً . وقد بني حوله سور من الحجارة الضخمة لكي يسندها و يمنع تقوض اركانها . وفي الجانب الغربي من هذا السور الحجارة الثلاثة المشهورة طول اكبرها ٦٣ قدماً وطول ثانيها ٦٢ قدماً و ½ قدم وطول الثالث ٦٢ قدماً وعلو كل منها ١٣ قدماً وقد قطعت على الراجح من محجر يبعد عنها نحو ربع ساعة حيث لا يزال حجر طوله ٧١ قدماً وعلوه ١٤ قدماً وعرضه ١٣ قدماً يسمى حجر الحبلى الذي قدر وزنه بمليون و ٥٠٠ الف كيلوغرام . ويحار الناظر لهذه الاحجار و يعجب من تلك المهارة العظمى التي رفعتها من محلها ووضعتها في تلك المحال مع ان وزن كل واحد منها لا يقل عن مليون كيلو و يحتاج لرفعه

من موضعه ٤٠ الف رجل حسب تقدير المهندس الموسيو سولسي مع ان الفسحة التي حول الحجر لا تسع اكثر من ٤٠٠ نفر ٠٠٠

وفي الجانب الشمالي من هذا السور تسعة حجارة كبيرة طول كل منها ٣٠ قدماً ٠ وكان الجانب الجنوبي معمورًا منكشفاً وفيه حجارة كبيرة مثل هذه ٠ وارتفاع الدكة التي اقيمت حول الصخر ونحت منه المذبح الاول خمسون قدماً وعليها بنى الرومان هيكلهم الكبير ثم بنى المسيحيون كنيستهم في داره

ويوجد في الجهة الشرقية من الهيكل رواق كبير طوله ١٨٠ قدماً وعرضه ٢٧ قدماً وفي كل طرف من طرفيه برج وكان امام هذا الرواق من الجهة الشرقية درج يصعد به اليه لانه مرتفع عن سطح الارض التي امامه عشرين قدماً ولم يبق شيء من هذا الدرج الان وكان فوق الدرج اثنا عشر عموداً ولم يبق منها الا قواعدها وعلى قاعدتين منها كتابة لاتينية قرأها السائحان (وود) و (دوكتس) منذ ١٥٠ سنة مفادها ان الهيكل الكبير بناه انطونيوس بيوس وجوليا دومنا « في اواسط القرن الثاني»

والبرجان اللذان على طرفي هذا الرواق مبنيان بحجارة كبيرة طول بعضها ٢٤ قدماً وهي مزخرفة بالنقوش من الداخل والخارج وامام كل منها باب يوصل الى الاقبية التي في الدكة · و يظن البعض ان تلك الاقبية كانت غرفاً لسكنى من كانوا يزورون المعبد وقد زينت سقوفها بالنقوش البديعة غير ان الصعود اليها الان صعب جداً بالنظر لاعتلاء ابوابها عن سطح الارض وعدم دخول النور اليها

وغربي الرواق البهو المسدس و يوصل اليه بباب اتساعه ١٧ قدماً وعلى جانبيه بابان آخران اتساع كل منهما ١٠ اقدام · وعرض المسدس من الشرق الى الغرب نحو ١٩٠ قدماً وطوله من الزاوية الشمالية الى الزاوية الجنوبية نحو ٢٥٠ قدماً وعلى دائره اربع مقاصير قائمة الزوايا امام كل منها اربعة اعمدة ومقاصير اخرى بينها · و يغلب على الذهن ان المقاصير المذكورة كانت مسكناً للرهبان خدام الهيكل · اما نقوش هذا المسدس وزخارفه فتأخذ بالابصار وتدهش الالباب على حالتها الحاضرة فكيف بها وقتما كانت في عزها ومقدمة مجدها وزخرفها

و يوصل من المسدس الى دار الهيكل وهي المربع الكبير و بين المسدس والدار باب كبير عرضه خمسون قدماً وعلى جانبيه بابان صغيران عرض كل منهما عشرة اقدام وطول الدار من الشرق الى الغرب ٤٤٠ قدماً وعرضها من الشمال الى الجنوب ٣٧٠ قدماً وحولها مقاصير ومحاريب للعبادة ونصب التماثيل وكان على دائرها اعمدة تحيط بها . وفي المقاصير محاريب كثيرة في طبقتين الواحدة فوق الاخرى لنصب التماثيل و بين المحراب والمحراب عدة اعمدة من الشكل الكورنثي البديع الصنعة واشكال المحاريب مختلفة فبعضها مقوس و بعضها صدفي و بعضها مقطوع من اعلاه والظاهر ان الاعمدة التي كانت امام هذه المقاصير والمحاريب كانت من المرمر السماقي المصري لان بعضها لا يزال مطروحاً هناك وقطر الواحد منها ثلاثة اقدام

و بعد ان خرجنا من المسدس دخلنا هيكل الشمس او هيكل جميع الالهة وهو من اكبر هياكل المسكونة وفي جدران سوره حجارة كبيرة جداً لم يبق فيه الان سوى ستة اعمدة قائمة تناطح السحاب صبرت على نائبات النوازل وعصت على غائلات

الزلازل وهي اول ما يظهر من بعلبك عن بعد · ويبلغ طول هذا الهيكل ٢٩٠ قدماً وعرضه ١٦٠ قدماً يحيط به اربعة وخمسون عموداً لم يبق منها قائما الان غير هذه الستة علو كل منها ٦٢ قدماً وفوقه افريز ارتفاعه ١٤ قدماً · ونقوش هذا الافريز وتيجان الاعمدة مما يعجز عن وصفه قلم البليغ · واعجب من ذلك تحكيم وضعها وضخامة جرمها وعظيم ثقلها والارتفاع الشاهق الذي رفعت اليه · والعمود ثلث قطع متصلة بعضها ببعض اتصالاً متيناً بقطعة او قطعتين من الحديد· ولقد جنت عليها يد الجهالة من بعض الحكام فكانوا يكسرون العمود الذي تفتخر دولة من دول الارض بنصب مثله في ساحات عاصمتها لكي يستخرج منه قطعة من حديد كانت رابطة بين اجزائه

واما الهيكل الصغير فهو الى الجنوب من الهيكل الكبير ولم يزل قائماً وهو من الطراز الكورنثي مثل الهيكل الكبير طوله مع رواق الاعمدة التي حوله ٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً وطول البناء من غير الاعمدة ١٦٠ قدماً وعرضه ٨٥ قدماً وكان يرقى اليه من جهته الشرقية بسلم فيها ٣٠ درجة بقيت الى عهد

السائح دلاردك الذي زاره سنة ١٦٨٨ والاعمدة التي حوله ١٥ من الشمال و١٥ من الجنوب وثمانية من الغرب وكان في الشرق صفان من الاعمدة الداخلي منهما مضلع وقطر كل عمود من اعمدته ستة اقدام وعقدتان وطوله ٤٦ قدماً وقد سقط اكثرها ولم يبق الان منهـا الاّ البعض والعمود الجنوبي منها سقط منذ امد بعيد واستند الى الجدار ولا يزال كذلك حتى الان

ولا تزال الاعمدة الشمالية قائمـة وكذلك السقف الذي بينهما وبين جدار الهيكل بما فيه من نقوش الازهار واوراق الاشجار والتماثيل الجميلة الصورة وباب هذا الهيكل من عجائب المباني بنقوشه وعتبته ثلاثة حجارة كبيرة انقض الاوسط منها حتى كاد يسقط فدعم ببناء قبيح المنظر ازاله الباحثون الالمانيون الان وردوا الحجر الى وضعه الاول

ثم زرنا بعد ذلك البناء العربي وهو بناء جليـل يدل على مهارة البنائين ولكنه لا يذكر بجانب الابنية الرومانيـة واهم ما رأيناه في الاسوار المحيطة بالبناء العربي حجر قائم في احدى زواياها طوله ١٩ مترًا وعرضه ٤ امتار وثخنه ٤ امتار وقد عجب

المهندسون جدا من الطريقة التي رفع بها هذا الحجر لذلك العلو والرأي الذي غلب عندهم هو انه كان بطريقة السطح المائل وانه استخدم لذلك الاسرى حسب العادة القديمة

اما المكتشفات الجديدة التي اظهرها الباحثون الالمانيون بامر الامبراطور غليوم الثاني فهي قائمة في وسط المسدس الكبير وعبارة عن آثار كنيسة قديمة طولها من الشرق الى الغرب نحو ٢٣٠ قدماً وعرضها من الشمال الى الجنوب ١٢٠ قدماً وكان في وسطها مذبح كبير طوله نحو ٢٨ قدماً والى جانبه الشرقي المذبح القديم المنحوت في الصخر والى يمينه و يساره حوضان كبيران لغسل الذبائح او للتطهير . جوانبهما كثيرة النقوش والزخرفة فيها الاكاليل وقلائد الازهار ورؤُس البشر والثيران والآلهة والحيتان والظاهر انهما اقدم من الكنيسة . والكنيسة تشبه في شكلها و بنائها كنيسة الامبراطور قسطنطين في القدس الشريف والظاهر انها بنيت معها في زمن واحد وان العرب هدموها ان لم تكن هدمت بزلزلة و بنوا مكانها حماماً

هذا وقد اطلعنا الدليل الذي كان يصحبنا على شيء من الاواني الخزفية التي وجدها النقابون الالمانيون اثناء حفرياتهم ولم يكن بينها ما يوجب الاعجاب او يستوقف البصر نحوها . اذ انها عادية محضة ولا يزال الالمانيون يبحثون ويجدون في التنقيب على امل ان يجدوا شيئاً ينيلهم ثمرة اتعابهم وجدهم منذ سنتين فاكثر

و بعد ان امضينا ما يقرب من ثلاث ساعات في التفرج وتفقد تلك المعالم خرجنا من حيث دخلنا وفي النفس اعتبار وهيبة لتلك الآثار ولكن وقار العظمة الالهية والجبروتية الربانية التي لا تدع بازائها عظمة لمخلوق او جبروتية لبشر ازالت من نفوسنا ذلك فسبحان الواحد القهار

✵ بين بعلبك ودمشق ✵

و بعد ان انتهينا من زيارة خرائب بعلبك وكان وقت قيام القطار الحديدي قد حان فركبناه رغماً عن الحاح الكثيرين من الاعيان والوجهاء الذين اظهروا من مكارم الاخلاق وجليل الالطاف ببقاء حضرة الاستاذ عندهم عدة ايام ما يعجز القلم عن

اداء شكره وقد كان حضرته يقابلهم بكل شكر وامتنان معتذراً لهم عن عدم اجابتهم بضيق الوقت وضرورة الوصول الى دمشق باليوم المعين · ولما ازف الوقت وهو الساعة ٦ والدقيقة ١٠ سار القطار يقصد بنا محطة رياق فبلغناها بعد ٤٠ دقيقة فمكثنا فيها ٣٥ دقيقة وقد بلغ ارتفاعنا عن سطح البحر ثمة ١٢٦٠ متراً وفي محطة رياق بنايتان جسيمتان خاصتان بادارة السكة الحديدية وتحتها مطعم للمسافرين يحاكي بانتظامه واتقانه اعظم المطاعم البيروتية الشهيرة

مضى على رياق زمن مديد وهي عديمة الشهرة فاقدة السمعة لا يعلم بها الآكل من يمر عليها اثناء طريقه ولكن ما اتخذتها ادارة السكة الحديدية محطة لتشعب الخطوط حتى اصبحت ذات شهرة زائدة وبدت عليها آثار العمران والتف حولها السكان فتلتقي فيها في آن واحد ثلاثة قطارات قطار بيروت وقطار دمشق وقطار بعلبك وبعد ان ينتقل الركاب من قطار لآخر حسب مقاصدهم يسير كل واحد منها في وجهته وقد كانت وجهتنا نحن دمشق فانتقلنا الى قطارها وهو من النوع الضيق وانتظامه

واتقان مفروشاته ومعدل سيره اقل من قطارنا الاول بكثير
بارحنا محطة رياق الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ وكان مسير
القطار غير منتظم لصعوبة الطريق فكان يلتفت يميناً وشمالا
باقواس بين جبال كثيرة الاشجار والبساتين وعلى جانبها
الطواحين والقرى الى ان بلغنا محطة يحفوفه الساعة ٨ والدقيقة ٢٠
وارتفاعها عن سطح البحر ١٢٠٠ متر ثم سرنا منها الى سرغايا فبلغ
الارتفاع ثمة ١٤٤٠ متراً ولما تحرك القطار بنا من المحطة المذكورة
بدا علينا سهل متسع لطيف المنظر تحيط به جبال شاهقة
واخذنا نحط من الارتفاع الذي بلغناه وانتظم آنئذ سير القطار
عن ذي قبل فبلغنا محطة الزبداني الساعة ٩ والدقيقة ١٣
فتدنى الارتفاع الى ١٣٠٠ متر ولم يقف بها القطار سوى دقيقتين
ثم سرنا منها فوصلنا آخر نفق على طريق الخط الحديدي بين بيروت
ودمشق وطوله نصف دقيقة وكان الارتفاع ثمة ١١٠٠ متر ثم وافينا
موقف سوق وادي بردى الساعة ٩ والدقيقة ٤٠ ثم اخذت تتعاقب
علينا المواقف فوصلنا محطة دير قانون ثم الفيجة وارتفاعها ٩٠٠
متر ثم الجديدة وارتفاعها ٨٥٠ متراً ثم الهامه ثم محطة دمر

وارتفاعها ٨٠٠ متر ثم المحطة الكبرى في دمشق وكان وصولنا اليها الساعة ١٠ والدقيقة ٤٥ وارتفاعها عن سطح البحر ٧٠٠ متر

﴿ وصف دمشق وصفاً ادبياً ﴾

بلغنا محطة دمشق وتجلت امامنا تلك المدينة الزاهرة الفيحاء بعد ان امتلأت اعيننا وزهت نفوسنا من مشاهدة تلك المناظر البديعة والمشاهدات اللطيفة التي مرت علنا منذ محطة الزبداني فكنا في سيرنا بين رياض غناء وجنائن فيحاء وجداول مياه متلألأة فكانت طريقنا هذه حرية بان تكون سبيلاً لمدينة قد قيل في وصفها انها جنة المشرق ومطلع نوره المشرق وخاتمة بلاد الاسلام وعروس مدن الشام قد تحلت بازهار الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين وحلت من موقع الحسن بالمكان المكين وتجلت في منصتها اجمل تزيين وتشرفت بان آوى المسيح عليه السلام وامه اليها الى ربوة ذات قرار معين . ظل ظليل . وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل . وقد سمت ارضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء . وقد احدقت البساتين بها

احداق الهالة بالقمر والاكام بالثمر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر وقيل فيها

دمشق بنا شوق اليها مبرح ... وان لج واش او الح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها ... عبير وانفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق ... وصح نسيم الروض وهو عليل

ومما قيل ايضاً من الشعر في وصف دمشق قول ابي المطاع ابن حمدان

سقى الله ارض الغوطتين واهلها ... فلى بجنوب الغوطتين شجون
وماذقت طعم الماء الا استخفني ... الى بردى والنيربين حنين
وقد كان شكي في الفراق يروعني ... فكيف اكون اليوم وهو يقين

وقول الصنوبري ايضاً

صفت دنيا دمشق لقاطنيها ... فلست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول الامواه فيها ... خلال حدائق ينبتن وشيا
مكللة فواكههن ابهى الـ ... مناظر في مناظرنا واهيا
فمن تفاحة لم تعد خداً ... ومن اترجة لم تعد ثديا

وقول البحتري

اما دمشق فقد ابدت محاسنها   وقد وفى لك مطريهـا بما وعدا
اذا اردت ملأْت العين من بلد   مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على اجبالها فرقًا   ويصبح النبت في صحرائها بردا
فلست تبصر الا واكفًا خضلاً   ويافعًا خضرًا او طائرًا غردا
كأَنما الغيظ ولى بعد جيئته   او الربيع دنا من بعد ما بعدا

وغير ذلك من حقائق الاوصاف التي تقصر غيرها من البلدان عن استحقاقها وتعجز اقلام غير اولئك البلغاء عن وصفهـا ويكفيها ان غوطتها احدى جنان الدنيا الاربع والثانية ابلة البصرة والثالثة شعب بوان والرابعة سغر سمرقند

ويجدر بي قبل ان اصف للقاريء الكريم ما شاهدته في الفيحاء من المشاهد اللطيفة والمناظر البديعة وامتلأَت به نفسي من مكارم اخلاق اهلها وكرم وفادتهم وجبرهم خاطر الغريب ان اوقفه على مجمل وجيز من حالتها الطبيعية والتاريخية والعمرانية وان كانت هي اعظم من ان يحيط بها مقام مثل هذا المقـام ولكن ما استعمل الايجاز في موضع الا وكانت الافادة حليفته

﴿ حالة دمشق الطبيعية ﴾

دمشق ويقال لها جيرون وجلق والفيحاء والشام واقعة في الدرجة ٣٣ والدقيقة ٣٢ من العرض الشمالي والدرجة ٣٦ والدقيقة ٢٠ من الطول الشرقي محيطها اكثر من احد عشر ميلاً تبعد عن بيروت ١١٢ كيلومترًا وعن القدس ١٣٦ ميلاً الى شمالي الشمال الشرقي وعن حلب ١٨٠ ميلاً جنوبًا بغرب وعن البحر المتوسط ٤٥ ميلاً موقعها في سهل خصب جميل محيطه ثمانون ميلاً على ضفة نهر بردى الجنوبية بيضية الشكل طولها من الشرق الى الغرب ما يقرب من ميلين ومن الشمال الى الجنوب ما يقرب من ميلين ونصف وقد كان يحيط بها سور قديم في زاويته الشمالية الغربية قلعتها المشهورة . وهي كثيرة المياه والبساتين في غوطة تعد من افضل جنات الدنيا وازهاها وازهرها فيها جميع انواع الاثمار والبقول والازهار

ويقال ان دمشق تشرب من سبعة انهر وما هي الا فروع تنبثق من النهرين اللذين يخرجان من سلسلة الجبال المجاورة لها وهما نهر بردى والاعوج . فاذا سلك الداخل على

دمشق طريق العجلات يرى بردى عن يمينه ونهر يزيد عن يساره بعيداً قليلاً وعلى بعد ميل عن دمر يتفرع منه نهر ثورا ويكون عن يساره ايضاً ثم يتفرع منه نهر القنوات ثم نهر بانياس والباقي يظل اسمه بردى . فالقنوات وبانياس يدخلان المدينة بالقنوات ويوزعان في معابدها وشوارعها وحماماتها ودورها وماء يزيد هناك ينضم الى بردى . والنهر الديراني الذي يتفرع من بردى عند دمر ينفصل عنه فرع عند بلوغه داريا ويجري بقنوات ويسقي بعض الميدان ونهر يزيد يسقي بساتين الصالحية ويوزع في دورها وما يفيض عنها يسقي بعض القرى . ويجري نهر ثورا في البساتين الشمالية ويسقيها ويدخل المدينة منه فرعان والباقي من مائه يسقي بعض القرى . وعند بلوغ بردى القلعة يتفرع منه نهر عقربا ويدخل المدينة ويديران ارحية كثيرة ثم يخرجان من باب توما وينضم اليهما الماء الزائد عن المدينة ثم تسقي مياههما بساتين القرى ثم تجتمع بقايا كل هذه الانهر في مجرى واحد وتصب في بحيرة المرج . فالانهر المذكورة هي

منصرف عقيما وقيّم بيتي اليعازر الدمشقي . ويستفاد من اسم اليعازر ومن قول يوسفيوس المؤَرخ انها مدينة ارامية وانها كانت حاضرة سامية

مضى على دمشق زمن مديد مع الاختلاف في زمن بنائها ولم تضبط تواريخها ولم تحفظ وقائعها . واول ما يعرف عنها من الوقائع من زمن الاشوريين فانها بقيت خاضعة لهم حتى سنة ٧٢١ ق . م حين استولى البابليون والفرس عليها . ولما عصى اهلها على بختنصر صاحب بابل دوخها واودي بها كثيرا . ثم خضعت لحكومة مادى بتسلطها على بابل وسنة ٣٣٠ ق . م استولى عليها اسكندر ذو القرنين . ثم صارت من مملكة السلوقيين اليونانية الى زمن استيلاء الرومان عليها سنة ٦٤ ق . م وقد خضعت في ذلك الزمن للامراء العرب بني غسان . وسنة ٥٩ ق . م قتل فيها كثيرون من الاسرائليين لتطلبهم الانخراط في سلك الامارة ثم عادوا اليها عام ٢٠ ق . م وبعد الصعود المسيحي اتاها حنانيا ثم بولس عام ٣٧ للميلاد فنشر فيها المسيحية وقبلها خلق كثيرون خلا الاسرائيليين وكان متوليًا عليها

آنئذ الحارث الغساني العربي حمو هيرودس الامبراطور الروماني الكبير وفي سنة ٥٤٠ م فتحها الفرس ودمروا كثيراً من ابنيتها وعادت بعد برهة وجيزة الى المملكة الرومانية واستعملوا عليها بني غسان . وفي سنة ٦٣٣ م الموافق لعام ١٣ من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة وازكى التحية حاصرها جيشان من الجيوش الاسلامية احدهما تحت امرة سيدنا خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ونزل به على الباب الشرقي والآخر تحت امرة سيدنا ابى عبيدة رضى الله تعالى عنه ونزل به على باب الجابية ومجموع الجيشين ٤٧،٥٠٠ جندياً . فاشتد الرعب على اهل دمشق فامر سيدنا خالد بالزحف عليها واقام المسلمون على حصارها عشرين يوماً الى ان اتاهم الخبر باجتماع الروم باجنادين فبعثوا لمقاتلتهم اولاً بخمسة آلاف فارس ثم كثر اجتماعهم فذهبوا اليهم جميعاً . ولما علم بذلك الدمشقيون خرجوا في اثرهم واقتطعوا قطعة من المال والحريم ورجع بها احد قوادهم وبقي الآخر يتأثر المسلمين فقاتلهم وضايق سيدنا ابا عبيدة الى ان انجده سيدنا خالد وكان في المقدمة فردوهم وبعد ان قاتل المسلمون الروم في اجنادين انتصروا

عليهم وشددوا الحصار على دمشق فتضايق اهلها وطلبوا المهل من سيدنا خالد فابى فطلبوه من سيدنا ابى عبيدة فامنّهم · وحضر اليه مائة من روءسائهم ودخل المدينة معهم بعد ان اجابهم الى طلبات توافق الشريعة المحمدية · اما سيدنا خالد فقد تغلب على المحاصرين في باب شرقي ودخل المدينة منه عنوة واخذ الجيشان يخطران البلدة هذا يعمل السيف بالرقاب وهذا يؤمن الانفس ولا علم لاحدهما بالاخر الى ان التقيا عند الكنيسة فاحتدم الجدال بينهما كل يؤيد مشروعه الى ان استقر الرأي بينهما على رفع الامر الى الخليفة فورد امره بالاقرار على رأي سيدنا ابى عبيدة وتم امرها بعد ذلك للمسلمين

واستعمل عليها سيدنا عمر معاوية بن ابي سفيان رضى الله تعالى عنهما وكانت مدة امارته ٢٠ سنة · وفي عام ٤١ هجرية بايعه الناس وكان موءسساً للدولة الاموية التي جعلت دمشق قاعدة الممالك الاسلامية وظلت كذلك الى سنة ١٣٢ هجرية اي من سنة ٦٦١ الى سنة ٧٤٩م وقد امتلك منهم اربعة عشر اولهم سيدنا معاوية رضى الله عنه وآخرهم مروان الثاني ولم تعد اليها

خلافة بعد ذلك

وفي ٥ رمضان سنة ١٣٢ هجرية حصر دمشق عبد الله بن علي قائد السفاح ففتحها عنوة بعد ان اوقع بعساكر مروان شر ايقاع ولما جاهرت بالعصيان ضد السفاح فتك بخلقها وبابنيتها فتكا ذريعاً وولى عليها عبد الله بن علي . ولما خلف المنصور السفاح ادعى عبد الله هذا الحاكمية على دمشق فتغلب المنصور عليه واستعمل على الشام غيره. وسنة ١٧٦ ه وقعت فتنة فيها بين المضرية واليمنية استمرت اربع سنوات . وبعد خمود نيرانها ضمت الى ولاية مصر . وسنة ٢٢٧ عاث القيسيون فيها وافسدوا فدوخهم الواثق العباسي وقتل منهم ١٥٠٠ وجاءها المتوكل سنة ٢٤٣ ونقل دواوينه اليها ولكنه استوبأ هواها واستثقل ماءها فرحل عنها بعد ان اقام فيها شهرين واياماً. وسنة ٢٥٢ ه عصى بها عيسى بن الشيخ العامل في الرملة بعد ان تغلب عليها مدة . ولما تقوى احمد بن طولون في مصر خرج على العباسيين واستولى على دمشق وحكمها قومه. وسنة ٢٧٠ خرجت من طاعة خمارويه بن احمد المذكور فاخضعها . ثم انجدتها عساكر بغداد ودخلتها سنة ٢٧١ وتبعته الرملة وقاتلته

فدارت الدائرة عليه · غير انه لمَّ شعثه واستأنف القتال وظفر بعساكر المعتضد البغدادية فتقهقرت الى دمشق فلم يقبلها اهلها فرحلت عنها وعادت الى طاعة خمارويه· وسنة ٢٨٤ استبد اطغج في دمشق بعد فساد حال هارون الطولوني في مصر · وسنة ٢٨٩ قاتل القرامطة وانكسر فتغلبوا على دمشق وصالحهم اهلها على مال فانصرفوا عنهم وسنة ٢٩٢ استولى عليها المكتفى ولما غاب عاملها في مصر قصدها القرامطة ونهبوها وقتلوا خلقاً كثيراً· وسنة ٣٢٧ استبد بها ابن رائق فقاتله عليها الاخشيد وبعد حروب عديدة استقرت الشام لابن رائق وسنة ٣٣٣ حمل عليها سيف الدولة الحمداني وحاصرها وارتد عنها ثم استولى عليها لما حكمها كافور بالوكالة عن ابي القاسم محمود بن الاخشيد · ثم اخرجه اهلها لطمعه بالغوطة وجعلوا كافوراً عليهم فاستولى على دمشق بدر الاخشيدي· ومات كافور سنة ٣٥٧ وخلفه ابو الفوارس احمد بن علي بن الاخشيد وفي السنة الثانية من ولايته سير المعز العلوي جيشاً كبيراً عليه جعفر بن قلاج فظفر بالمدينة ونهب بعضها· وجاءها القرامطة سنة ٣٦٠ وقتلوا جعفراً في ظاهر المدينة

واستولوا عليها . وسنة ٣٦٢ ظفر المعز لدين الله بالقرامطة . وسنة ٣٦٥ وافق اهلها افتكين احد موالي عز الدولة على رفع ربقة اميرهم فتغلب على عساكر العزيز بانضمام القرامطة اليه . وقصده العزيز بنفسه وقاتله فركن الى الفرار ثم سلم فاكرمه العزيز الى ان مات افتكين . واستعمل عليها الى عام ٤٥٥ الى ان ارسل المستنصر بدرًا واليًا عليها . وفي سنة ٤٦١ وقعت فتنة بين المغاربة والمشارقه فاتصلت نار بالجامع الاموي . وسنة ٤٦٧ رجع الامير الب ارسلان خائبًا عنها بعد ان حاصرها وضايقها وعاد اليها سنة ٤٦٨ فملكها . وسنة ٤٧٠ فتحها العلويون فانجدها تتشى صاحب حلب وهزمهم . واستأنفوا الحصار سنة ٤٧٨ ودافع تتشى عنها فارتدوا عنها وسنة ٤٨٨ استولى عليها ابنه وفاز بعد نزاع طويل

وسنة ٥٢٠ نزل الافرنج في المرج الصغير عند قرية شقحب فقاتلهم واليها طغتكين وانهزم . ثم جاءها بهرام الاسماعيلي البغدادي ودعا اهلها الى مذهبه فتبعه خلق كثير واستفحل امره . وسنة ٥٤٢ حصرها الافرنج الصليبيون فانجد واليها

سيف الدين غازي صاحب الموصل وحبطت مساعيهم وارتدوا عنها بعد ان كانوا مؤملين بان يملكوا البلاد بامتلاكها . وسنة ٥٤٤ خشي نور الدين صاحب حلب نفوذ الافرنج في دمشق وان يملكوها فاستمال اهلها سرًا وحصرها ففتحوا له الباب الشرقي فدخلها وولي عليها اخاه نجم الدين ايوب الذي شاد المدارس وروج العلم . وخلفه بعد وفاته ابنه الصالح اسماعيل فاطاعه صلاح الدين الايوبي بمصر . ولما سار الى حلب وكان اميرها متغيباً عن حكومته خافه امراء دمشق فدعوا البطل صلاح الدين الى امتلاكهم فاجابهم واستولى على المدينة دون القلعة ثم فتح البلاد وصالحه الصالح اسماعيل على ان يكون الذي فتحه في يده فابي الا ان تكون الخطبة والسكة باسمه وهكذا تم . وبقي في مصر يشن الغارة ويفتح البلاد ويدوخ الافرنج الى ان هادنهم وعاد الى دمشق ومات في قلعتها سنة ٥٨٩ وهو مؤسس الدولة الايوبية وبعد وفاته قسمت المملكة بين اولاده واخوته فكانت دمشق للافضل نور الدين بن علي . ودامت دمشق تتقلب بين ايدي الايوبيين من اقرباء المؤسس صلاح الدين وسلالته الى سنة

٦٥٦ حيث كان الناصر عليها وبلغه امر التاتار في بغداد وفتكهم باهلها فخابر هولاكو على ان يصالحه ولما علم بوصولهم الى حلب وايقاعهم بها رحل بجنوده نحو مصر فملك التتر بلاد الشام وتسلموا دمشق من اهلها بالامان . وفي عام ٦٥٨ حاربت العساكر المصرية التتر في الغور فانكسروا شر كسرة وحل المظفر دمشق . ثم استناب الامير علم الدين سنجر الحلبي ولما قتل المومى اليه بايعه الدمشقيون ولقب نفسه المجاهد وفي سنة ٦٥٩ نازل الظاهر بيبرس دمشق فلاقاه صاحبها المجاهد المومى اليه فانهزم وصارت دمشق ملكاً للظاهر واقيمت الشعائر له بها وانتهت به الدولة الايوبية في دمشق واستولى المماليك عليها واستقر ايدكين البندقداري الصالحي بها . وفي سنة ٦٧٦ توفي بيبرس في دمشق وخلفه ابنه السعيد علي . ثم اخذت تنتقل دمشق من يد الى اخرى من المماليك الاتراك المصريين الى ان انقرضت بقيام الجراكسة

اما اول الجراكسة فهو الظاهر برقوق تبوأ العرش سنة ٧٨٤ وسنة ٨٠٣ حمل تيمور المغولي على دمشق وفتك بها فتكاً ذريعاً

حتى كادت تندرث آثارها . ثم سار عنها في ٣ شعبان سنة ٨٠٣
وفي سنة ٨٠٤ اخذ بقايا اهلهـا يعودون اليها فعمروا بعض خرابها
و بقيت للماليك الجراكسة الى ايام قانصوه الغوري الذي قتل
سنة ٩٢١ هجرية فاستولى بعده ابنه الملك الصالح تومان باي وقتل
بعد ثلاثة اشهر من استيلائه ثم سار اليهـا بعد ذلك ساكن
الجنان البطل الشهير السلطان سليم فاتح مصر والشام والحجاز
واستولى عليها واقيمت الخطبة فيها باسمه كما اقيمت له في الحجاز
واصبحت منذ ذلك الحين ملكاً خالصاً عثمانيـاً لم تصل اليهـا
يد اجنبية عن التبعة العثمانية و بودنا ان لو نفصل تاريخهـا منذ
دخولها في الحوزة العثمانية تفصيلاً شافياً ولكن المقام يمنع عن ذلك
لضيقه واننا نكتفي بقولنا انه لم يمر على دمشق زمن ملؤه الراحة
والسكينة والاطمئنان اهله بصفاء وهناء الا ما يطرأ احياناً من
الاحوال المكدرة السريعة الزوال وذلك حسب اقتضاء الزمان
والمكان اموالهم محفوظـة واعراضهم مصانة لا جور لا تعدي
لا هتك حرمات عليهم مثل هذا الزمان فهم في بحبوحة امن
راتعون يدعون الله آناءَ الليل واطراف النهار بان يديمهم مستظلين

بالعلم العثماني المظفر بوجود من افتخر هذا العصر بوجوده سيدنا ومولانا امير المؤمنين وسلطان العثمانيين السلطان الغازى عبد الحميد خان حفظه الله وادامه واعلى على ذروة الخافقين اعلامه واخر ما ورد اليها من الولاة العثمانيين حضرة صاحب الدولة حسين ناظم باشا الافخم واليها الحالي . وقد اتخذتها الدولة مركزاً لفيلقها الخامس ومشيره الان حضرة دولتلو اسماعيل حقي باشا المعظم

﴿ حالة دمشق العمرانية ﴾

نقصد بها اسس العمران الحقيقية وهي المعارف والصناعة والتجارة ونرى من اللازم اجمال البحث عنها وان كانت تستحق ايضاحاً وبياناً يستغرقان صحائف جريدتنا اذ الايجاز الوافي اضبط في النفس واعلق في الخاطر من التطويل المستوفى

(معارفها) — : لم تكن شهرة دمشق بحسن موقعها ونظافة منظرها واستكمال حالتها الطبيعية باقل من شهرتها بالعلم والمعارف فقد كان لها المقام الاعلى وخصوصاً ايام الامويين اذ امتلاءت

بالمدارس والمكاتب وانفق عليها اموال غزيرة في سبيل تعزيز العلم واعلاء عماده ولكنه كان على غير الطراز المعهود في يومنا هذا اما الطريقة المعروفة اليوم فلم يكن مبدأها قبل القرن الخامس من الهجرة و يقال ان اول من بنى المدارس للطلبة وادرّ عليها الارزاق ورتب لها المرتبات نظام الملك ذاك الوزير الذي كان فخر الدولة السلجوقية وهو موءسس المدرسة النظامية ببغداد

ولقد ازدادت دور العلم ور با عددها ايام عهد نور الدين الشهيد وحاشيته وذريته فلقد زهت في ايامه واصبحت نبراساً يستضاء به و يعشى اليه من كل جهة ووجهة حتى ضرب المثل بصالحيتها فوصفت بانها مشحونة بالزوايا والمدارس والقُرَب حتى انه كان يمشي بين صفوف من بنايات شاهقة وصروح باسقة من المدارس ودور العلم واين هي اليوم؟

وقد كان في دمشق سبع دور للقرآن الكريم وثماني عشرة دارًا للحديث وسبع وخمسون مدرسة للشافعية واحدى وخمسون مدرسة للحنفية واربع للمالكية وعشر للحنابلة وثلاث مدارس طبية وهي الدخوارية انشئت سنة ٦٢١ واللبودية انشئت سنة ٦٦٤

والصلاحية انشئت سنة ٦٧٠ وكان بها صيدلية منتظمة والربيعة غربي البيمارستان النوري· ولم يبق من اثر في عهدنا لتلك المدارس الطبية

ولقد انقرض اكثر المدارس المذكورة ولم يبق منها سوى خمس عشرة مدرسة حسب التقاويم المحلية وطلابها مختلطون مع بعضهم على اختلاف المذاهب اما المدارس التي انشئت في القرن الماضي فهي مدرسة المرادية لصاحبها الشيخ مراد المرادي · ومدرسة ايضاً في دار بمحلة سوق ساروجا وتعرف بالنقشبندية البرانية مع مسجد ومدرسة سليمان باشا العظم اسست في باب البريد سنة ١١٥٠ وهي الآن مكتب للاناث· ومدرسة عبد الله باشا العظم في سوق السلاح اسست سنة ١١٩٣ ومدرسة اسماعيل باشا العظم في سوق الخياطين اسست سنة ١١٤١

هذه هي دور العلم الخاصة بطلاب العلم الشرعي من تفسير وفقه وحديث وغير ذلك من العلوم الشرعية والعقلية واللغوية ويطالب العلم ايضاً في مجالس اخرى تعقد في الجوامع والمساجد وبعض من التكايا ويكثر في دمشق العلماء وطلاب العلم

اما العلوم العصرية من فنون ولغات فلم يبدأ دورها الا منذ زمن ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان فقد اسس في زمانه عدة مكاتب ابتدائية ثم اخذت النهضة العلمية العصرية يشتد عضدها ويقوي ساعدها الى زمن جلالة الخليفة الاعظم ايده الله تعالى اذ نمت المعارف العصرية نموًا عجيبًا وترقت دور العرفان ترقيًا لم يكن في الحسبان ولا بأس ان نورد لك دليلا على ذلك عدد المكاتب الرسمية وغير الرسميه ومقدار طلابها حسب ما جاء في الاحصاء الرسمي لعام اول . ففي دمشق مكتب اعدادي ملكي وعدد طلابه ٢٦٠ من المسلمين و٧ من غير المسلمين ومكتب اعدادي عسكري عدد طلابه ١٤٦ ومكتب رشدي عسكري وعدد طلابه ٥٠٧ ومكتب رشدي للاناث عدد طالباته ١١٩ ويوجد ٤٦ مدرسة علمية — وذلك حسب الاحصاء الرسمي — وعدد طلاب علومها ٢١٨ ويوجد من المكاتب غير المسلمة اربعة للذكور والاناث ومن المكاتب الاجنبية اثنان وهما الحائزان للرخصة الرسمية اما غيرهما من المكاتب المفتتحة بدون رخصة رسمية فكثيرة .
وفي دمشق اربع مطابع واربع جرائد: سوريه، الشام، روضة الشام

الشمس ، ولا يصدر منها الآن سوى الاوليتين . ومما يعد ملحقاً بالعلم والمعارف دور الكتب فقد كان لدمشق الحظ الاوفر حتى انه سارت بعظم اسواقها ببيع الكتب الركبان وتحدث به الرجال والنساء والولدان وضربت الامثال لضخامة الكتب الموجودة فيها حتى انه يقال كان في خزانة صلاح الدين الايوبي قدس الله سره عدد عظيم من الكتب الضخمة التي كان يشتمل كل كتاب منها على خمسين او ستين جزءاً

ودامت دمشق زاهية بدور كتبها وما تشتمل عليه من الاسفار الى ان اتاها هولاكو التتري فنهب وسلب ومن جملة ذلك الكتب والاسفار العلمية حتى قيل في ترجمة نصير الدين الطوسي الرياضي الشهير المتوفى سنة ٦٧٢ انه لما اسس مرصده الشهير اتخذ فيه خزانة كتب مما نهب على عهد هولاكو من دمشق وبغداد والجزيرة فتجمع فيها ما يزهو عن اربعمائة الف كتاب

ثم اخذت تتجدد بعد ذلك دور جديدة للكتب ولكنها لم تكن في حقيقة الامر سوى دوارث الكتبيات القديمة ولكن ايدي المختلسين لم تكف عنها بل زادت الطين بلة وضاعفت

اضرار الزمان باذياتها فاخذت تنهب وتسلب مما بقي الى ان انتبه لهذا الامر جماعة من اولي الفضل فسعوا بواسطة الحكومة المحلية عام ١٢٩٨ ه وجمعوا ما تفرق في الخزائن العامة من الاسفار واودعوها خزانة عامة قائمة في شطر من مدرسة الملك الظاهر بيبرس قبالة العادلية الكبرى، ونصبوا عليها قواماً ووضعوا لها شرائط المكاتب في البلاد المتمدنة فجاءت مكتبة مؤلفة من ٢٤٥٣ كتاباً متنوعة في ٤٠٠٠ مجلد المخطوط منها ٢٦٠٠ والباقي مطبوع واكثره في الفنون والادب احضرت حديثاً وهي من مطبوعات اوربا . هذا عدا الدشت والكراريس والاوراق المتنوعة

ولقد زرنا المكتبة المذكورة فوجدناها بانتظام يذكروة يننا ان يكون في بلدتنا شبيه لها او مما يقاربها اذ الحالة الحاضرة تقضي بوجود مكتبيات عامة في كل بلدة بل وفي كل قرية . ومن اهم الكتب المخطوطة المهمة في هذه الدار الآن كتاب الكواكب الدراري لابن عروة الحنبلي وهو اكثر من مئة وعشرين مجلداً في فن التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والرد على الفلاسفة واسماء الرجال وعلوم شتى والموجود منه ٤٢ جزءاً . والغريب في الحديث

كثير منها اجوبة الامام احمد من اسئلة ابي داوود السجستاني كتب سنة ٢٦٦ . والبحر المحيط في اصول الفقه للزركشي في خمسة مجلدات . والضوء اللامع للسخاوي في تراجم اهل القرن التاسع خمسة مجلدات كبيرة جداً . وتاريخ ابن عساكر تام في عشرين مجلداً . واجزاء من كتاب الام للامام الشافعي خامسها وهو الخامس عشر منها . والجزء الخامس من الفتاوى المصرية لشيخ الاسلام ابن تيمية وهي في علوم شتى . وغير ذلك من نفائس الكتب الجليلة

ومما يعد متمماً لحالتها العلمية المستشفيات التي كانت مقامة فيها فانها اثر العلم والانسانية معاً . وقد كان منها في دمشق ثلاثة اثنان منها انشاءهما نور الدين الشهيد الاول النوري الكبير والثاني في باب البريد والثالث في الصالحية واسمه القميري نسبة لمنشئه الامير ابو الحسن القميري في القرن السابع . ولم يبق من المستشفيات المذكورة سوى النوري وقد قلب في ١٥ ذي القعدة سنة ٣١٧ الى مستشفى على الطراز الجديد ودعي بالمستشفى الحميدي وجعلت بجانبه دار للمعتوهين ودار للايتام وغيرهما مما يتصرف تحت اسم المستشفى . وهو في غاية الانتظام واطباؤه من المهرة الحذاق

وقد كان في دمشق ستة وعشرون خانقاها · والخانقاه كلمة فارسية مركبة اصطلاحية وهما دار للفقراء ومأوى للدراويش ومن قبيل ذلك الرباط وهو مسكن الدراويش والفقراء وكان في دمشق اثنان وعشرون رباطاً · ومن قبيله ايضاً الزاوية وكان بها ست وعشرون زاوية

« صناعتها » —: وقد كان لدمشق شهرة زائدة في الامور الصناعية ايام عز دولتها وسمو شانها حتى كانت مقصداً وموردا من كل البلاد السورية وما جاورها فكانت الصنائع فيها متنوعة جدا حتى انه يروى ان لابن الصائغ الدمشقي منظومة في ثلاثة الاف بيت في الصنائع فيها ولكن أنّي لنا معرفتها وقد اندرثت آثارها وعفيت معالمها حتى انمحت من العقول اسماؤها · وقد بقي حتى القرن الماضي شيء منها معروفاً فلا باس من تعداده وايجاز وصفه :

« القيشاني » وكانت تزين به جدران مبانيها العمومية · وقد اندرث منذ قرن تقريباً وظهر لارباب البحث انه كان يعمل من الرمل الابيض والجبس يجبلان معاً ويفرغان في قوالب على الشكل المطلوب وتكتب على سطوحها ما يرغب وينقش وما

يستحسن بجوادثاته و يذر عليه مسحوق الزجاج او تطلى ممدوداً بسائل غروي وتشوى في تنور معد لذلك

«الفسيفساء» وقد تنوسي امرها منذ اعصر · ولا يزال شيء منها في بعض المحلات · وهي عبارة عن فصوص مربعة من الزجاج الملون المذهب تلصق بالجدران بعضها بجانب البعض بحيث يتألف منها ما يراد من النقوش والصور الجميلة ·

« الزجاج الملون» وكان معروفاً فيها و يتخذ للزخرف والزينة ومنه الاكواب والانية على اختلاف ضروبها وقدفقدت صناعة الزجاج ايضاً وانحصرت صنعة البسيط منه في دمشق باناس من افقر الفقراء

« النقش والدهان» وهو من احسن الصنائع في دمشق ومن يدخل قاعاتها المشهورة يدهش من زهاء الالوان والنقوش التي على جدرانها وسقوفها حتى يخيل له ان النقاش خرج منها الساعة و يكون مضى عليهاا كثر من مائتي سنة وقد اندرثت هذه الصناعة و بقي منها ما يكمد لونه و ينتزع بهاؤه في عدة اشهر

« السيوف والخناجر » وهذه من الصنائع التي اختصت بها دمشق حتى كان يضرب المثل بنصالها التي عرفت بصفاء مائها واخضرار لونها وارهاف حدها ولطف فرندهـا يزيدها حلاوة وطلاوة ما يكتب عليها من الآيـات والآثار بماء الذهب . وقد اندرثت هذه الصنائع من دمشق منذ ايام تيمور يوم اخذ معه كل ماهر بفن من النساجين والخياطين وصناع السيوف

« النحاس » ولم تزل هذه الصناعة معروفة ولها رواج تباع من السياح والافرنج باثمان رائجة وهي عبارة عن ثريات وجفان وتعاليق ومصابيح و كؤوس ومباخر وقماقم وصحاف وموائد مصنوعة من النحاس الاصفر منقوشة في الغالب احرفاً لا تقرأ

« التنزيل » وهو نقش الحديد او الفولاذ بالذهب او الفضة او معدن آخر او شغل الخشب وتنزيل الصدف او خشب الليمون فيه . وكانت في دمشق من ارقى الصناعات فلما استمالت الاحوال كادت صناعته تفقد حتى جدد شبابها منذ بضع سنين وصارت رائجة في اسواق اوربا واميركا تزدان بها قصور الامراء والاغنياء

« النسيج » اشتهرت الاصـواف والحرائر والمنسوجات

الغزلية بوشيها وحسن طرازها في غابر الازمان عند الدماشقة وبمدينتهم عرفت فصار يقال لها الدماسكو . ولكن كاد يقضي عليهما لما خرجت المنسوجات الافرنجية ولو لم يدركها الله برجل يدعى عبد المجيد الاصفر فاخترع صناعة الديما ثم برجل اسمه الروماني فتفنن في المنسوجات الحريرية تفنناً عجيباً لاندرست هذه الصناعة تماماً ولا تزال الى الان متماسكة احوالها وفيها مرتزق لنحو خمسة عشر الف نسمة من الدمشقيين

« الورق » وقد كان يصنع فيها الورق من القطن بقدر كاف لها وهو على طراز متين وجنس قوي لم يتمكن الافرنج حتى الان من اكتشاف سره

« الصباغة » وقد كان للصباغ الدمشقي صيت بعيد في سائر الاقطار لثبوت الوانه ولطافة لمعانه اذ كانت اصباغه معدنية ونباتيه لا غش فيها . فلما تغلبت الاصباغ الغربية بطل استعمال القديم منها بل نسي امره واعتيض عنه بالجديد المغشوش

« الدباغة » كان لدبغ الجلود شان عظيم بحيث يكفي المحضَّر منه لامتهانات دمشق وضواحيها و يسافر منه الى البلاد الاخرى

ولكنه اعتيض عنه بالجلد الافرنجي لكثرة زخرفه ورخص ثمنه

«العطور» كانت صناعة العطور مشتهرة جدًا في دمشق وخصوصاً في قرية مزه القريبة منها بالنظر لكثرة ما فيها من الازهار والانوار وكان يحمل ما بها من العطورالى اقطار العالم ولكن الامر قد اندرث الان ولم يعرف له من اثر يذكر

هذا وكان في الفيحاء صنائع كثيرة ربما يحتقر شانها البعض ولكن اذا انعم النظر يسجل بانها من موجبات الحضارة والارتقاء مثل صناعة الابر المفقودة الان بتة · واكثر الصنائع رواجاً واتقاناً في دمشق الان النجارة والنحاتة والبناية والنساجة والحدادة والصباغة والسكافة والحياكة والنحاسة وعمل السروج والاكاف

(تجارتها) كانت دمشق مركزًا تجارياً مهماً بعد سقوط تدمر فكانت تحط بها القوافل من كل قطر وتغدو وتروح اليها اصحاب التجارة فيربح من ذلك اهلها ربحاً زائدا وخصوصاً من الحجاج الذين يمرون بها ذهاباً واياباً الى ان فتحت ترعة السويس فانتزعت منها تلك الاهمية التجارية وتحولت لبعض الاساكل

السورية ولو لم يكن بقية من الحجاج تغدو وتروح اليها لعدمت اربابها التجارية وانحصرت تجارتها بما يصدر منها من المنسوجات القطنية والحريرية والمصنوعات الخشبية والحنطة والزيت والسمن والصوف وعرق السوس والمشمش وبذره والقمر الدين والخروق البالية والبيض والجلود وما شابه ذلك مما يكاد الوارد اليها من البلاد الاوربية وغيرها ان يكون اضعافه. ومن الاسف الشديد عدم امكاننا الاستناد على الاحصائيات التجارية التي تكتب عن دمشق فان اكثرها مبنى على التخمين . والظن والحدث لا ينتجان حقيقة يعتمد عليها

ما وقف بنا القطار في تلك البلدة الفيحاء التي وقف القارئ الكريم على شذرة من حالتها الطبيعية والتاريخية والعمرانية حتى ابتهج لبنا وسر فؤادنا بمشاهدة نخبة من ذوي الوجاهة والفضل والكرامة والنبل قد شرفوا موقف القطار استقبالاً لحضرة الاستاذ ولا تسل آنئذ عن تلك المقابلة التي حكت كل ما يكون بين متقابلين قد اتصفا بصفات الكمال واتشحا باردية الرزانة والجلال وقد تبودلت ثمت عبارات الترحيب وجمل التأهيل .

ثم ركبنا العربات قاصـدين دار حضرة معدن اللطف والكمال ورب الفضائل وجليل الخصال الحسيب النسيب الاكمل صاحب الفضل والفضيلة السيد عطـا افنـدي العجلاني فوفدت وفود المهنئين بالقدوم على اختلاف طبقاتهم من علماء اعلام وامراء كرام ووجوه ذوي احترام مظهرين كامل اللطف وعظيم الايناس فما كان الفكر يجول ولا العقـل يتصور بان بعد ماشاهدناه من لطف الدمشقيين لطفاً وبعد مكارم اخلاقهم مكارم ولا عجب بذلك فقـد اشتهروا منذ القديم بما قلناه حتى كاد ان يحـكم علماء الاخلاق بان في طبيعة تربتهم اوماء بلدتهم عناصر خاصة تستدعي تلك الصفات وهاتيك الاخلاق وسبحان الخلاق ·

وقد زار حضرة الاستاذ المومى اليه كل من صاحبي الدولة ناظم باشا ملاذ الولاية السورية والمشير اسماعيل حقي باشا مشير الفيلق الخامس ودعى عند دولة الثاني منهما لمأدبة اقامها له اكراماً واحتراماً ومهما يجمع الانسان فكره ويستوعب ما طرأ على مخيلته مما عرض عليه في دمشق لا يقدر ان يستوفيه فان المشاهد كثيرة والفكر خوّان والمقام يضيق دون ذلك ولكن

لا بأس من ان نذكر شيئاً مما علق في الذهن اذ لا يخلو من فائدة

تشرفنا باديء ذي بدء بزيارة الجامع الكبير الاموي الذي جدد بناءه اخواننا الدمشقيون على احسن طرز وابهى منظر واحكم صنع وادق عمل بعد ان احترق منذ خمس سنين تقريباً فاظهروا في سبيله كل همة ونشاط وكرم وسخاء وصفاء نية وخلوص فجاء بفضل الله تعالى جامعاً تفتخر به الامة الاسلامية عموماً والدمشقيون خصوصاً . والذي زاد في عظمة النفوس الدمشقية وسمو الهمم الفيحائية انه ليس ليد اجنبية فضل في بنائه حتى ولا استشارة في اصطناعه فهو دمشقي صرف . وقد روى الينا ان كثيرين من الاجانب دهشوا من دقة الصناعة واللطافة والاحكام التي شاهدوها في ذلك البناء الجسيم وتلك التزيينات الغريبة . فحرى باخواننا الدمشقيين ان يفتخروا بجامعهم وحقيق بمؤرخي هذا الزمان ان يجعلوا ذلك لهم غرة في جبين سائر اعمالهم الخيرية . ويقدر المصروف عليه بما يقرب من ستين الف ليرة فجزى الله المحسنين والقائمين باعماله خير القيام

وقد تشرفنا بزيارة مقامات سيدي محيي الدين بن عربي

رضي الله تعالى عنه وسيدي عبد الغني النابلسي قدس الله سره ونور الدين الشهيد وصلاح الدين الايوبي عليهما الرحمة والرضوان وشاهدنا في مقام الاخير الاكليل الذي اهداه له حضرة الامبراطور غليوم الثاني عاهل المانيا وهو مصنوع من البرونز الاصفر وموضوع في خزانة بلورية امام الضريح وقد زرنا غير هذه المقامات اضرحة كثيرين من الصحابة الكرام والاولياء العظام والعلماء والصلحاء رضوان الله تعالى عليهم اجمعين فكانت نفوسنا تجد في تلك الزيارات انشراحاً وانبساطاً لم نجده في غيرها من الزيارات الدنيوية الخالية عن كل ما يسر الروح الانسانية الخالصة من شوائب الشهوات النفسانية ٠

وقد زرنا الصالحية ونزرًا من المقامات القائمة بها وهي عبارة عن ذروة سامقة بجانب من دمشق تعلو عنها عند مقام الشيخ الاكبر خمسين مترًا اذ يبلغ الارتفاع ثمت عن سطح البحر ٧٥٠ مترًا وعند مصطبة الامبراطور وهو المحل الذي اقيم فيه لامبراطور المانيا دكة لطيفة للاستراحة عليها عند زيارته دمشق ٣٠٠ متر اذ يبلغ الارتفاع هناك ١٠٠٠ متر وان القلم ليعجز عن

وصف ذلك المنظر البديع الذي يتجلى للمستعلي تلك الذروة والاليق ان نقول ذلك الجبل . تتجلى امامه دمشق بسائر ازقتها وفسحاتها ودورها وانهارها وجنائنها وحدائقها وغوطتها وكل ما يستوقف البصر ويستشخص النظر . سهل واسع الارجاء غير قاحل الافاق . يطل منه على ما يقرب من نصف مليون من العوالم وعلى ملايين من الكيلو مترات المكتسية بجلابيب من نباتات مختلفة الالوان والاشكال والطعوم والاثمار تخترق تلك المروج الخضراء جداول مياه براقة . ومما يزيد في بهاء تلك البقعة ما يدركه الانسان من حسن المناخ ولطافة الهواء فسبحان من خص ما شاء بما شاء

وقد زرنا المكتبة العمومية التي اشرنا اليها ابان ذكرنا الحالة العلمية في دمشق ولم يتيسر لنا زيارة غيرها من المعاهد العلمية لمصادفة ايام وجودنا فيها مدة التعطيل الصيفي

ومن الطف المحلات التي زرناها القاعات التي اشتهرت دمشق بهن وهي عبارة عن محل فسيح في وسطه بلاط وعلى جوانبه من الداخل ايوانات قائمة قد زينت جدرانها بالفسيفساء والبلاط

الصيني والنقوش البديعة والالوان الجميلة المنزلة بالذهب التي تاخذ بالابصار وزاد في حسن بعض منها اقامة خزانات مملؤة بالاواني الصينية النادرة المثال ذات القيم الثمينة وقد فرشت بالمفروشات الحريرية الجميلة النقوش من صنع دمشق وغيرها فزادت في حسنها وضاعفت من جلالة منظرها · ومن اعظم القاعات الدمشقية قاعة بني العظم الاكارم وهي التي زارها الامبراطور واهدى حضرة صاحبها سعادة عبد القادر بك المؤيد رسم حضرته بالقطع الكبير وقد كتب بخط يده عليه اهداءه له · ثم تتلوها بالبهاء والحسن قاعة حضرة صاحب السعادة والمجد قوتلي زاده احمد افندي و يليهما بعد ذلك غيرهما من القاعات

وقد اختصت مدينة دمشق ببعض الالعاب الجناستيقية كلعب السيف وعصاة الشوم وغيرها فمهر فيها البعض حتى طار صيتهم في المدن المتمدنة وتطلبهم الاقوام للتفرج وتسريح الابصار بما يجرونه من الالعاب الغريبة · وقد شاهدنا احداها وهي اللعب بالسيفين اذ لعب به امامنا احمد اغا الذي اشتهر بهذا الفن حتى دعي بابي السيفين فشاهدنا منه رشاقة ولباقة مع تقدم سنه تدهش الابصار

وتاخذ بالافكار فقد كان مستلاً سيفين في كل يد واحد منهما وهو يلاعب اثنين من مهرة اللاعبين بالسيوف ولا يؤخذ او يؤشر عليه كما هي العادة فيمن يغلب . ولاحمد اغا المذكور شهرة عظمى في اميركا وفرنسا يوم اخذ لمعرض شيكاغو فاظهر فيه براعة ومهارة تذكر اذ نازل اربعة رجال من مشاهير اللاعبين بالسيف فادمى منهم السواعد وشهدوا بانه امهر من هز عضباً واستل ماضياً حتى ان حكومة الولايات المتحدة كافأته بنوط ذهبي كتبت عليه اسمه وبجائزة قدرها خمسون ذهباً ثم حضر منها الى باريس واظهر فيها براعته فبادر اليه مديرو الملاعب الرياضية والتعاليم العسكرية ورغبوا اليه ان يبقي عندهم ليعلم شبانهم لعب السيف مقابل بضعة الاف من الفرنكات راتباً شهرياً فلم يقبل . ولما ان فرغ من المقاولة حضر الى الاستانة وتشرف بالمثول بين يدي جلالة مولانا امير المؤمنين حفظه الله تعالى واظهر ثمت من ضروب الالعاب ما راق لدى جلالته فاحسن اليه براتب قدره خمسمائة غرش جزاء اهتمامه باحياء فن من فنون الرجولية ومزية من مزايا الشجاعة والفروسية

وبعد ان لعب امامنا تلك الالعاب اللطيفة اهدانا رسوماً ثلاثة الاولى تمثله وهو في معرض شيكاغو يلاعب اربعة دفعة واحدة وقد غلبهم . والثانية يلاعب ثلاثة وقد اوقفهم على حدهم . والثالثة يلاعب اثنين الاول چركس رضا بك رئيس بلهواني جلالة مولانا امير المؤمنين والثاني محمد حافظ افندي الشامي من عبيد الذات الملوكية

هذا وقد شاهدنا في دمشق غير ما ذكرنا كثيراً من المشاهد الحرية بالذكر والجديرة بالبسط ولكن المقام يضيق الآن عن ذلك وبعد ان امضينا ما يربو عن اسبوعين تقريباً في دمشق رغبنا بالسفر فلم نتمكن منه الا بشق الانفس اذ كنا نرى من اولئك الاكارم كل لطف وايناس بمما نعتنا رغبة بالبقاء اياماً اخر في فيحائهم ولكن نباء قلقاً قوى عزيمتنا ففارقناها ضحى يوم الاثنين ثالث شهر رجب الفرد وقد ازدحمت محطة القطار الحديدي بوفود المشيعين لحضرة الاستاذ المومى اليه فسار بنا القطار وازدادت السنتنا انطلاقاً بالثناء والدعاء لدمشق واهلها الاكارم

بين دمشق وبيروت

سار بنا القطار من محطة دمشق يطوي الفيافي والقفار عائداً على الطريق التي قدمنا منها · وما احيلى تلك الطريق التي التفت عليها سوج قد تدلت منها انواع وضروب من الاثمار ما بين حمراء قانيه وصفراء فاقعه وبيضاء ناصعة · وقد كانت قرويات يحطن بمنافذ القطار عند وقوفه على احدى المحطات بين دمشق ورياق وبايديهن انواع الفواكه والاثمار فيبعنها بارخص ثمن من الركاب ·

وصلنا محطة رياق واسترحنا فيها مقدار نصف ساعة ثم استأنفنا السير فوصلنا محطة زحلة وهي البلدة الجميلة القائمة بين جبل لبنان والجبل الشرقي على سفح جبل بالقرب من وادٍ عظيم او سهل وسيع فسيح الارجاء ممتد الانحاء بين الدرجة ٣٣ والدقيقة ٢ والدرجة ٣٤ والدقيقة ٤ من العرض الشمالي ينصب من تلك الجبال الشاهقة كثير من الجداول والانهار الصغيرة على النهر الجاري من الشمال الى الجنوب والمدعو (ليطاني) ثم ينصب في البحر المتوسط وفي تلك النقطة مركزان لقائمقاميتين مختلفتي المرجع احدهما

قائمقامية البقاع وهي تابعة لولاية سورية وثانيهما قائمقاميـة زحلة وهي تابعة لمتصرفية جبل لبنان · وان القلم ليعجز عن وصف ذلك المنظر البهيج الذي يحدثه الوادي باخضراره وغزارة مائه · ويبلغ ارتفاع محطة زحلة المذكورة ٨٤٠ مترًا عن سطح البحر ·

ثم سرنا منها الى محطة سدنايل وارتفاعها ٨٥٠ مترًا فحدث شتورا وارتفاعها ٩٤٠ مترًا فقرية المريجات وارتفاعها ١١٤٠ مترًا ثم قطعنا بعدها جسرًا ذا ثلاث قناطر ويبلغ ارتفاعه ١٣٨٠ مترًا فوصلنا محطة صوفر تلك المحطة التي اشتهرت بنزلها الهائل في اصقاع البلاد واخذ السواح يقصدونها من كل جهة وهو ذو طبقات متعددة ودرجات متفاوتة ولم يسمح لنا الوقت بالتفرج على بنايته واتقان مفروشاته داخلاً وتفقد احواله ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ١٢٠٠ متر ثم وصلنا الحدد ومنها كشفت لنا مدينة بيروت وتجلت امامنا تمامًا ويبلغ ارتفاعها ٨٠٠ متر وتساويها محطة عاليا التي تليها بالارتفاع ايضاً وبعد هذه محطة الجمهور وارتفاعها ٣٠٠ متر ثم وافينا محطة بعبدا وارتفاعها ١١٠ امتار · فانتقلنا آنئذ من القطار الى عربات الشوسة التي استقبلنا عليها نخبة من الاصدقاء والاحباب

وسرنا نقصد بيروت تلك المدينة الزاهرة التي يعدها الطرابلسيون بلداً واحداً مع طرابلس بالنظر لما بينهما من القرب وتنظيم الروابط المادية والادراية ٠

فلا بأس اذن من ان نجمل القول التاريخي عنها اذ لا يخلو من الفائدة :

❊ وصف بيروت التاريخي ❊

بيروت : بلدة قديمة جميلة تجارية من اهم مدن سورية واقعة على شاطئ البحر في طول ٣٣ درجة و٨ دقائق شرقاً وعرض ٣٣ درجة وثوان على الجانب الشمالي الشرقي من لسان طويل داخل في البحر المتوسط الى مسافة نحو ٩ الاف متر يعرف براس بيروت وطرفه الاقصى في طول ٣٥ درجة و٢٨ دقيقة شرقاً وعرض ٣٣ درجة و٥٠ دقيقة شمالاً ٠

وقد اختلف فيمن بناها كما اختلف في غيرها من البلاد السورية فقيل وضع اساسها الجرجسي خامس اولاد كنعان ولذلك دعيت مدةً (جريس) وان اهلها ينسبون الى الكنعانيين وان بيروت كانت احد المراكز لعبادة البعل يتزاحم فيها الاهلون لتأدية

فروضات دينهم في هيكل عظيم شيدوه على اسمه وبنوا له هيكلاً آخر فوق مدينتهم على مسافة خمسة اميال منها كانو يحجون اليه زرافات ولا تزال آثار هذا المقام الى يومنا بجوار قرية بيت مرِى وهي تعرف بدير القلعة وقيل غير ذلك من الخرافات التي يعزوها الاقدمون لمعبوداتهم ولكن هذا اقرب للحقيقة من غيره ·

اما سبب تسميتها بيروت فقد اختلف فيه ايضاً اختلافاً عظيماً فقال البعض باشتقاقها من اسماء بعض المعبودات في تلك الازمان وقيل من بعض رموز للحيوانات والاشجار التي كانت تطلق رمزًا على الآلهة وقيل غير ذلك والرأي الارجح ان اسم بيروت اشتق من (بئروت) وهو بالعبرانية جمع لبئر وذلك لما حفر بها اول سكانها من الابار واما لعذوبة مياه هذه الآبار · التي لا تزال الى يومنا هذا ينزل اليها من اماكن معلومة وينفذ بعضها الى بعض على مسافة بعيدة · وماؤُها عذب كثير لا ينقطع تجتمع منه عيون في انحاء البلدة وقد دعاها قدماء المؤَرخين باسماء اخر منها بَرْوَه ومنها (دِرْبى) ولم يعلم اصل هذا الاسم · ودعاها اوغسطس قيصر مستعمرة (جوليا فيليكس) نسبة الى ابنته التي

زوجها لحاكمها وقتئذٍ ٠

وفي بيروت من الآثار القديمة التي تدل على عظم شأنها شيء كثير. فمنها اسوارها التي بنيت على قواعد من الرخام واعمدة كثيرة من الحجر المانع المدعو (غرانيت) وقد نقل اليها من مصر العليا اذ معدنه في اصوان وقد بقي منها نزر قليل عبثت به الايدي ولا يزال شاهد عدل على عظمه وقدرة من بناه ٠ ومنها قناة الماء الهائلة التي يعدها علماء الآثار القديمة من العجائب التي تذكر وقد بقي منها اليوم بقايا ضخمة وهي المعروفة عند البعض بالجسر الروماني والغالب عليها اسم قناطر زبيده ٠ ويقول العامة ان زبيدة زوجة الخليفة هرون الرشيد هي التي شيدتها لتستجلب بها مياه عذبة لبيروت ونسبها البعض الى زينب ملكة تدمر الشهيرة وقد دعيت ايضاً زبيدة مدة من الزمن ٠ والذي يغلب على الذهن انها قديمة العهد تنبئ هندستها على شغل الرومانيين ٠ اما المياه التي كانت تساق بها فمن نبع العرعار فوق قرية بعبدات من مقاطعة الشمالي في جهة الشمال الشرقي من القرية المذكورة ٠ ومن الآثار التي تدل على ما كان لبيروت من المجد المسكوكات القديمة التي وجدت فيها فمنها باسم اسكندر

المكدوني ومنها باسم بطليموس ابيفانوس في القرن الثالث قبل الميلاد وغير ذلك مما يضيق المقام عن استقرائه

ينتهي بنا تاريخ بيروت الى امتلاك ملوك اشور ونينوى الاولين لهاو ينقطع عما قبل ذلك والدليل على هذاان اهلهاوحكامها كانوا يتكلمون باللغة الاشورية و يكاتبون بهاملوك مصر بعد ان فقد البابليون ولايتها . ولما قويت شوكة الفراعنة تولوا على سواحل فينيقيه نحو القرن الثامن او التاسع عشر قبل الميلاد وكانت بيروت من جملة ما ملكت ايديهم. وجعل ملوك مصر لكل بلدة (خزانى) اي ولاة كانوا يختارونهم بين الاهلين تحت مراقبة حكام مصريين يدعونهم (ربيصى)

ولما اخذت دولة الفراعنة بالانتكاث في القرن التاسع والثامن قبل المسيح تقلبت الاحوال على بيروت فحل بها ما حل باخواتها من المدن الفينيقية وتملكها تباعا بعدهم ملوك بابل ثم ملوك فارس ومادای ثم الاسكندر وخلفاؤه من السلوقيين . واستقلت مرارًا عند استقلال غيرها من مدن فينيقية . وفي سنة ١٤٠ ق م . اخربها تريفون لثبات اهلها على طاعتهم للملك انتيوخس السادس

فبقيت خراباً ٧٥ سنة الى ان رممها الرومانيون في ايام بومبيوس الذي ملك سنة ٦٥ ق م ولم تزل من ذاك الوقت ترتقي في معارج الارتقاء والنجاح الى ان جعلها اوغسطس قيصر مدينة اوليّة تخول اهلها حقوق الرومانيين وافاض عليهم نعماً عديدة وولى امرها القائد مرقس فسبسيانس اغريبا وزوجه بابنته ودعى المدينة باسمها (جوليافيليكس) اي السعيدة . ثم اخذت تتوالى عليها تقلبات الازمان ما بين سعد وشقاء واقبال وادبار ولكنها لم تخرج عن السلطة الرومانيه وقد حدث فيها عدة امور ووقائع لا يزال التاريخ يطنطن بها الى ان كان القرن السادس للمسيح فهدمت بزلزلة هائلة خربت قسماً عظيما من مدن الشرق ثم رممت ولكنها لم تعد الى عظمتها وفي اواسط القرن السابع كان ظهور الاسلام وامتداد فتوحات المسلمين ففتحها جيش تحت قيادة يزيد بن ابي سفيان الذي استخلفه سيدنا ابو عبيدة رضي الله تعالى عنه على دمشق ثم تغلب عليها الروم في اوائل خلافة سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه فقصدها سيدنا معاوية رضي الله عنه وفتحها عنوة وشحنها بالمقاتلين وقد عظم فيما بعد ذلك شأن المسلمين وخرج منهم الائمة الاعلام مثل الامام

الاوزاعي رضى الله تعالى عنه الذي عُمل بمذهبه في الشام ما يقرب من مأتي سنه (ولد في بعلبك سنة ٨٨ هجرية وتوفي في بيروت في شهر ربيع الاول سنة ١٥٧ ودفن في جنوبي غربي المدينة على ساحل البحر في قرية يقال لها حنتوس) وغيره من المشاهير .

وبقيت بيروت في زمن الامويين في ايدي قوم من فارس قد عهد اليهم سيدنا معاوية الدفاع عليها ومحافظتها من المردة وهم نصارى العجم الذين استقدمهم ملوك القسطنطينية للمحافظة على سواحل لبنان من هجمات العرب . الى ان صار الامر لبني العباس فقرروا الامر على الفارسيين الذين كانو يدعون بالارسلانيين والتنوخيين في حكمهم على الساحل . وفي سنة ١٤٠ هجرية حج الخليفة ابو جعفر المنصور وقدم دمشق فاقطع المنذر بن مالك واخاه ارسلان اقطاعاً وامرهم بالسكنى في جبال بيروت . ثم ما فتئت حكومة بيروت تنتقل في سلالة الامراء المذكورين الى ان غزاها سنة ٣٥٢ ه زيميسيس الذي يدعوه العرب بالشمشيق فاستولى عليها وبقيت في يد الروم الى سنة ٣٦٥ ه فاسترجعها منهم جوهر القائد الذي اعادها لبني ارسلان

وفي سنة ٤٠٥ ﻫ تولى على بيروت فتح غلام ابي نصر لؤلوء صاحب حلب · وفي سنة ٤٣٩ تولى امارتها مع امارة الغرب ابو جعيد قابوس بن فاتك من قبل المنتصر الخليفة · وفي سنة ٥٠٣ استولى عليها بغدوين ثاني ملوك الفرنج في القدس · وفي سنة ٥٧٨ﻫ اغار عليها صلاح الدين الايوبي ثم رجع عنها · وفي سنة ٥٨٣ افتتحها عنوة · وصارت من ذلك الوقت عاصمة سورية لحكومة المسلمين الى حين وقعة القاسمية بين الصليبية وعساكر الملك العادل فاتاها الافرنج واستولوا عليها سنة ٥٩٢ ﻫ · وفي عام ٦٨٩ ﻫ استولى عليها سنقر الشجاعي قائد جيوش الملك الاشرف خليل بن قلاوون · وفي عام ٧٣٣ اغار عليها الافرنج الذين اتوها من البحر ونهبوها ومنذ ذلك الحين اخذت تتقلب عليها الامارات تارة بصورة الاستقلال وطورًا بصورة التبع لدولة المماليك · ومن اشهر السلالات التي استولت عليها بالاستقلال امراء بني الغرب وقد دعيت فروع منهم بالبختريين نسبة لجدهم بختر وبالتنوخيين وهم آخر الامراء استقلالاً على بيروت واولهم طوعاً لساكن الجنان

السلطان سليم خان الاول الذي اتى مصر والشام عام ٩٢١ ه
واستولى آنئذٍ على بيروت وعلى السواحل السورية · ولكن بيروت
بقيت تحت حكم الامراء التنوخيين المار ذكرهم فصاروا عمالاً
للدولة العلية ايدها الله · واولهم الامير فخر الدين قرقماز الذي
اشتهر بالمعنيّ · ولما توفى عام ٩٩٢ ه ترك ولدين صغيرين الامير
فخر الدين والامير عز الدين فضمهما اليه خالهما الامير سيف الدين
التنوخي الذي كان يسكن في اعبية الغرب ولما قوى عضدهما حارب
الامير فخر الدين المذكور على يوسف باشا ابن سيفا بالقرب من نهر
الكلب واستعاد منهُ حكم بيروت وكسروان وحكمها سنة واحدة
ثم تركهما برضاه لابن سيفا وسار الى الشوف ·

وفي عام ١٠١٥ ه · عهد الوزير الذي حضر من الاستانة
لاخماد بعض الفتن بسنجقية بيروت وصيدا وغزير الى علي بن
فخر الدين المعنيّ و بقيت في حكمه الى عام ١٠٢١ ه · حيث
تولاها حسن باشا ابن سيفا بامر احمد باشا حافظ دمشق ·
ثم استفحل امر فخر الدين المعنيّ واستقر له الحكم في بيروت بعز
وجاه الى ان وشي به عند الدولة العلية فالقت القبض عليه عام

١٠٤٢ هـ . فانتهز الفرصة هذه السنة الامير علي بن علم الدين اليمني وضبط ارزاق بيت معن وقتل قوماً من اصحابهم ثم توجه الى اعبيه و باغت الامراء التنوخيين فقتلهم جميعاً فانقرضت سلالاتهم

ثم صارت بيروت ايالة يحكم عليها وعلى صيدا حاكم من قبل الدولة العلية وكان مع ذلك علي بن علم الدين يسكنها و يتصرف بامورهـا بصفة كونه خلفـاً لامراء الغرب . ثم اخذت تتقلب عليهـا الولاة العثمانيون من عام ١٠٦٥ هـ . الى عام ١١٠٨ هـ . حيث توفي الامير احمد بن معن بلا عقب فانقرضت به الاسرة المعنية وامر الباب العالي بان يكون الامير حيدر ابن موسى الشهابي خلفاً للمتوفي المذكور ومن ذلك الحين ابتدأت امارة الشهابيين و بقيت بيروت تابعة لهم الى زمن الامير يوسف وذلك عام ١٢٠٤ هـ . حيث عين احمد باشـا الجزار متسلماً عليها وقويت شوكته وما فتئت بيروت متنقلة من يده الى يد الشهابيين حتى عام ١٢١٨ هـ حيث توفي فيها الجزار فعادت الولايـة الى عمال الدولة العلية ايدها الله على ان يكون مقام الحكام في صيدا . وفي عام ١٢٥٥ هـ انتقلت اليها الايالة وجعلت مركزاً تحت حكم

ولاية سورية . وفي عام ١٢٧٦ ه صارت بيروت قائمقامية حرجة الحدود فكانت ضربة قاضية عليها ثم تحولت الى متصرفية والحقت بها قائمقامية صيدا وصور ومرجعيون . وفي عام ١٣٠٣ ه جعلت ولاية والحقت بها متصرفيات طرابلس الشام وعكا ونابلس واللاذقيـة وما يتبعها من الاقضية .

اما حالتها العلمية والتجارية والمالية فهي اشهر من ان تذكر وان القلم ليعجز عن استيفاء وصفهـا وغاية القول انها تجاري احدى العواصم الاوربية علماً وتجارة لا زالت رائعة تحت ظل الظليل العثماني ابقاه الله . اه

هذه هي المدينة البيروتية التي قدمنا اليها من دمشق وليس هذا اول قدوم اليها حتى نصف ما شاهدناه فيها من المسرة والابتهاج وبعد ان اقمنا عدة ايام سررنـا جداً بما شاهدناه من لطف اهلها وقاطنيها ركبنا الباخرة (اصوان) احدى بواخر شركة ليمتد الانكليزية التي لا يزال السوريون يدعونها البواخر الخديوية فاقلعت بنا قاصدة طرابلس ظهيرة يوم الجمعة الواقع في ١٥ رجب من السنة الحالية فوصلناها اصيل اليوم المذكور فالقت السفينة

مرساها واخذ اللسان يردد قول الشاعر

فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر



خاتمة

هذا آخر ما يسر الباري للقلم السير فيه في وصف ما زرناه من البلدان وللفكر ان يذكر ما شاهدناه هاتيك الاوان فالله اسأل ان يستر نقائصه ويسدل ذيول ستره علينا ولا يكشف معائبه

خط القلم ما خط معتمداً على آخر ما حرر في هذا الموضوع ثم جعلنا مجموع ذلك هدية نقدمها لمشتركي جريدتنا الاكارم ليكون تذكار مودة متبادلة واثر مصافاة مشتركة والله الموفق



فهرست

صحيفة

صحيفـة

